زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: و كان
اسم المؤلف: زهير أبو سعد

الطبعة الأولى 2017 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رواية

و كان

زهير أبو سعد

إهداء

إهداء إلى موطني سوريا ،
إلى العاصمة العتيقة دمشق ،
إلى الشاب الشهيد عصام البيطار ،
إلى أهلي الشهداء : قدوتي أبي و ملاك قلبي أمي ،
إلى كل قطرة دم أرقت في سبيل الحرية و الكرامة ،
إلى المعتقلين و المهاجرين و الجرحى و اللاجئين و المشردين و الفقراء و المستضعفين و المنفيين في هذا العالم المظلم ،
إلى وطني الثاني النمسا الذي احتضنني تلك البقاع الرقراقة و عاصمتها فيينا ، أقول لها من نبض حبري : شكراً

1

هذي دِمَشق..
و هذي الكأسُ و الرّاحُ إني أحبُّ..
و بعضُ الحبِّ ذبّاحُ..
أنا الدمشقيُّ..
لو شرحتمُ جسدي لسالَ منهُ عناقيد و تفاحُ..

نِزَار قَبَانِي

و كَانَ ،

هُنَاكَ ،

على كَتِفِ هَذهِ الأرضِ ،

مَدِينَة كَاليَاسَمِين يُقالُ لها دِمَشقَ ،

إنهَا عَاصِمَة قَبْل الحُبِّ بِأميَالٍ ،

و بَعدَ العِشقِ بِأمتَارٍ ،

إنهَا قَبلَ الوَلِعِ بِقُبلة ،

و بَعدَ الشَغَفِ بِاشتِهَاء ،

كُلَّ مَا فيهَا يَدعُوكَ إلى الجُنُون ، إنَهُ جُنُون الُمدُنِ التي تَرسُوا على جَاذِبِيَّةِ القُلُوبِ الُمنكَسِرَةِ ، لِتمتَثِلَ في مِحَرابِ ذُعرِها المُهِيب ،

إنهَا تِلكَ العَوَاصِمُ الُملتَهِبَة دَوَرَانَاً على ذَؤوبَةِ الأرضِ ، لتُسهِدَ بِتَأجُجٍ سَرمَدِي ، و لتَروِي للأجيَالِ احتِبَاسَهَا المُغرَم ما فَوقَ دَرَجَةِ صَبَابَتِهَا المِئَوِية.

الساعة 50 : 04 ،

بِتَوقِيتِ اليَاسَمِينِ فَجراً ،

هُنَا يَتَسرَّب وَحي البُنِّ ، كَلِصٍّ يهوي إلى بَكُورَةِ الصَبَاحِ على استِحيَاء ،

هُنَا عَبَق الهَيلِ الَمسحُوقِ ، كالنَدَى عِندَمَا يضمَحِلُ على الأرضِ البَتُولِ ،

هُنَا المَاضِي بِفَتِيلِ رَونَقِهِ ، هُنَا الحَاضِرُ بشَهَامَةِ حَضَارَتِهِ ،
هُنَا عَاصِمَة بَنِي أُمَيَّة بِشُمُوخِ مَآذِنَها ، و أروِقَةِ مَاضِيهَا ،
هُنَا يَرقُدُ الصَحَابَةِ بِسَكِينَةٍ ، يَنَامُونُ في قُبُورِهِم أحيَاءٌ مُخَلَّدُونَ على لِيُونَةِ الثَرَى الدِمَشقِيةِ ،
هُنَا مَقَامَات آل بِيتِ رَسُولِ الله ، بِقِبَابِهِم التي تُعَانِقُ أكنَافَ السَمَاءِ ،
هُنَا طَمْرُ الصَالِحِينَ ، تشهَدُ على وِلآيةِ كَرَامَاتِهِم ، تَمتَمَةِ أذكارِهِم في كُلِ شِبرٍ على غَبراءِ الشَامِ ،
هُنَا كَنَائِسِ الرُسِل التي تَقرَعُ أجرَاسِ الوَحي ، في كَهَنُوتِ الَملَكُوتِ الأزَلِي ،
هُنَا مَسعَى الحَضَارَات ، ومَقصِدَ العُلَمَاء ، و الِمعرَاج الوَحِيد إلى أَوَّجِ العَلياءِ ،
مُلُوَّنَة العَاصِمَة العَتِيقَةِ ، كَعَرُوسٍ تَزَيَّنَت لليلةِ زِفَافِهَا ، شَهِيَّة بِأزِقَتِهَا المُشتَعِلةِ بِالوِصَالِ ، ضَيّقة بِجُنُونِهَا البَاليّ ، قَدِيَمة بِضَوضَائِهَا الهَامِد ، تَستَيقِظُ المَدِينَة القَدِيمَة كُلَّ فَجرٍ ،
مِن بَعدِ لَيلَةٍ مَحمُومَةٍ بِالذِكرَياتِ التي أشعَلَهَا الزَائِرُونَ بالهُجُودِ و السَمَرِ الُمفرِط ،
على سَيفُونيةِ يَومٍ جَدِيد ، مِن بَعدِ أن أضمرَ اليلُ حُزنَهُ كَطَي العَتمَةِ للنُجُومِ ،
فَلا مُوسِيقَى تَشهَقُ على زَفِير السُكُونِ و المَهَابَةِ ،

و لا صَخَبٌ يَغتَال خُيُوطَ الشَمسِ كحُنجَرةِ فَيرُوز ،
فَكُلّ المُدُن تَخِرُّ مُرتَطِمَة على شَخِير سَاكِنِيهَا ، إلّا دِمَشقَ فَإنهَا تَستَيقِظُ و تُيقِظُ مَعَهَا الياسَمِين ،
فَعِندَمَا تَتَثَاءَب ، تَخلع خَلاخِل النَّومِ من مَعَاصِمِهَا ، لِتُشعِرَكَ بِخَفَقَاتِهَا التي تَدُبُّ تَحتَ فَغوَةِ فَجرِهَا ، بل التي تَسرِي بِأريجِها إلى رُوحِك ،
وَ لكَأنَّ زَفِير الصَّباحِ بَلْسَمٌ يُضمد جِراحَ قاسَيونَ الْمتَوثِّب ، ذَلِك الوَتَد الشَّامِخُ الَّذي يحجِبُ الظَّلامَ المحتَدِم خَلفَ التِّلال المُستَعِرة فَساداً و استِبداداً ،
ذاك الصَّرحُ الجَبَلي الذي يترجَّلُ كَفارِسٍ ، لِيذبَّ عَن نَسِيمِ دِمشقَ رِمَاح النَّوازِلِ الَّتي تَكبُوا عَلَى سِحْرِ فِتنَتِها ،
أيُّ عَروسٍ تِلكَ التي يَستَبشِر بِثَغرِها صِبَا الفَلَق ؟ ،
و تُوقِظ تبرُّجَها و زَخرَفها و إثارَتها التي تتَّقِد تتيُّمًا ،
بَل إنَّها توقِظ الحَنِينَ في دَركِ شَهيَّتِنا ، لِيَنبلجَ النُّور مِن ثَنايَا تَبسُّمِها ،
إلى الكَلِماتِ أكتُبُ ،
إلى العِبارَاتِ أرسُمُ ،
إلى الرِّوايَاتِ أسْأَلُ ،
أيَّة زُرقَةٍ برَّاقَةٍ تحرُسُ حِمَى سَمَائِها ! ،
مُتصوِّفة تِلكَ الأزِقَّة المرصُوصَة بِآثَار الغَابِرينَ ،
مُتَعبِّدة تِلكَ الجُدرَان التي لَم تخرُج مِن خَلوَتِها ،

زاهِدَة تِلكَ النَّوافِذ النُّحاسيَّة الُمستَطيلَة التَّكوِين ،
تقيَّة تِلك الأبْوَاب تَسِير حَافِية الزُّهْد لِتتَفقَّد أمْعَاء رعَايَاها ،
نَاسِكة تِلكَ الصَّوامِع تُعانِق الفِردَوس في انْتعَالِها صَفَاء الغُيُوم ،
أُورْثُذكْسيَّة تِلكَ الَمعَابِد كَرَاهِبٍ يُراقِصُ تَرَاتيل السَّالِفين في قَلْبِ الَمسِيح ،
شاهِقَة تِلكَ الَمزَارات تَعجُّ بِطَائفِيها ، كَخَليَّةِ نَحلٍ مُلتَهِبة بِالرَّحيقِ الُمصفَّى ،
وَ كَانَ ،
يُحيطُ الَمدِينَة القَدِيَمة عَشرَة أَبوَابٍ:
عصيَّة ، مَنِيعة ، شَاهِقَة ، شَهِيَّة ، إِلَى هذَا الزَّمانِ..
بَاب تُومَا ، بَاب الجَابِية ، بَاب كِيسَان ، بَاب السَّلام ،
بَاب الفَرج ، بَاب شَرْقِي ، بَاب الفَرادِيس ،
بَاب صَغِير ، بَاب الجَنِّيق ، بَاب النَّصْر..
أُحدِّثُكَ عَن مَلِكة مُؤصَدة بِالأبْوَابِ ، الَّتي سَارَ تَحتَ ظِلِّها رِجَال الرَّبِّ ، يَحمِلُون الزَّيتَ بَغيَة سَرجِ قَنَاديلِها ، تِلكَ الأعْمِدة التِي احْتلَّها اليَاسمِين العَبَقِي ، مُتسَلِّلة كُلّ الجُدرَان مُختَرقة كُلّ الَمنَافِذ ، فَتَجِد عِطرهَا يَتَسكَّع عَلَى أَطرَافِ تَأجُّجِها بِتعرٍّ عَابرٍ لِلأفئِدَة ، تِلكَ الرَّوائِح الُمتَّقدَة بِشَهيَّتِها ، تَفْتِك بِغَرِيزَة السَّالِكين تَحتَ ظِلِّ قُيُودِهَا شغفًا مُبهمًا..

شَهيَّة تِلكَ الأبْوَاب بِحصَانَتِها فَعِندَما تَرْمِقُ عَينَاكَ ثَبَاتَها ، يَسْقُط قَلبكَ مِن رَصَانةِ رَهبَتِها ، لِتَتربَّع بِمفَاصِلِكَ شَرَاسَة الارتِجافِ الَّتي تَعصِفُ بِالسَّكينَة ما بَينَ مَدٍّ و جَزرٍ ، وَ نُور كَسَنَاءِ القَمَر يَقصِم أَعتَابهَا ، فَمِن وَجَلٍ و خَوفٍ ، تَكادُ تَخلَع نَعلَيك وَ تَمشِي عَلَى ذُعرِ جَوارِحِك مِن شَراسَة تَحرُّشها اختِلاجًا..

وَ سُور فُضُولي يَلفُّ عُنقَ الَمدِينَة ، كمِشنَقَة تَمنَع نِصال العَين مِن اخْتِراق أحْلامهَا الُمحكَمة ، و تَردُّ بَوائِق الحَسَد كَحبَّة زَرقَاء اتَّكأَت علَى صَدْر غَجَريَّة الحُسْن ، قَتلَتها جَاذبيَّتها المُتَرامِية بِاللذَّةِ ، وَ رُخَام بَازلتِي بِحجْمِ شَقَاء مَن حَمَلوهَا علَى أكتَافِهِم ، مُتَراصَّة فَوقَ بَعضِها البَعض ، لِيتَوسَّم الُمتحَرِّشونَ بِغُموض رَصَانتِها الُمفعَم بِالأصَالة الشَّرقِية..

و تُعاشِر الجُدرَان البَالِية كَدَماتِها المُخضَّبة بِالماضِي ، كَخارِطة تعِزّكَ إِلَى مَن تَخضَّب بِشُقوقِها مُتبرِّكًا ، و تَسكبُ علَى قُلوبِ مَن ضلَّ مِن حَجِيج الَمدِينة العَتِيقَة رَاحَة تخمِدُ صَبابَة الَحائرَين ، و نُقُوش تَائِهة فَوقَ مقَاييس الجَلالِ ، وَ إذَا وَقعَت عَدسَة عَيناكَ علَى تَهشُّمِ طَلاسِمها الُمتهَالكَة بِاشْتِباكَاتِها اللُّغوِية ، فلَن تُشفَى مِن نَبيذِ مَذاقِهَا المُخَمَّر بَجِرارِ الغَابرِين ، مُفترِسة تِلكَ الرّقع الحجَريَّة الَماكِرة برسُوخِها ، من يَمسّها يُصَاب بِعدوَى الشَّجن الثَّملِ ، وَ لَا شِفَاء لِشَقاء مسّها ، سِوَى بِاغتِسَالِكَ

في نَهر بَردَى الْمقدّس ، الذي يَنبَع مِن بُحيرَة بَردى جَنُوب الزَّبدَاني سَالِكًا الأفْوَاه الْمتعَطِّشة إلَى بِركَته لِيَصُبَّ بِبُحَيرة : سَبخَة العَتِيقَة..

بَردَى ، يَجرِي مُحتدماً كلّ سَواقِي الوَرِيد الْملتَحم ، كَجَان مُتلبّس بِشَرَايين من اعتِرَاه الظَّمأ ، فَمن اغْتَرفَ مِنهُ مُصادَفةً أضْحَى ضَحيَّة مُنتَمِية لِلشَّوق ، فَلا رَادّ لِحرَارةِ شَوقِه سِوَى جُرعَة هَائلَة مِن النِّسيَان الْمؤثَّث ، لِتُفقِدكَ العَقْل أَو تُباغِتك حُشود الغِياب الْمؤبَّد في مَعمَعة الَهوَى ،

نَهر يَروِي ضَمِيم الدِّمشقِيين ، و حَواشِي الزَّائرِين ، و أَكُف الْمتبرّكين ، و صَرع الَممسُوسِين ، و تَخبط المَلمُوسِين ، و وَلع الْمشتَاقِين ، وَ أهْل الحُبّ ، و أَنبِيَاء الغَرَامِ ، وَ رُسُل العِشقِ ، وَ قدّيسِي الشَّوق ، و رُهبَان الهَوَى ، وَ من ارتَطَم أَسِيرًا في حُظوظ النَّفسِ..

و أحْجَار مُصَاغة في مَدابِغ الذَّهبِ المُعتَّق ، لِتفَترشَ الأزقَّة المفتَرسَة بِالحَنين ، و لِتُغيّبَ مَلامِح التُّراب بِشرَفٍ مُقنِعٍ ، و لِتُخفِي لَظَى الحصَى بِخِمارٍ مُغلّفٍ بالتوَغُّل ، شَاحِبة تِلك الَممرَّات لِفَرطِ مَن وَطِئَ حَرمَها الْمبَاح ، و لِتَفضَّ الأرجُل حاجَّة و هِي سَاعِية علَى اسْتِباحَة أُنوثَتها الحَجرِيَّة مِن كلّ فجٍّ عَتِيقٍ ،

وَ في الَمغيبِ يتَسكَّع الْهدُوء علَى أَوتَارِ الأفُولِ عَازِفاً طُقوس الزَّوال الأخِير ، لِيضمِّد جرَاحَ النَّهارِ الْممَزَّغ بِالغُموضِ ، بِمرَاهِم عَلِيل الشَّام العَبثِي ،

بِحقِّ السَّماء أيُّها السَّادة.. !

أيَّة قِدِّيسَة تِلكَ التي تجعَلُ رُوحَكَ تَعتريها قشعَرِيرَة تَهزّ الوَجدَ في مكَامنِ جَسدِك ، عِندمَا تُعاشِر سِحر دِمشْق

لِتتورَّط كَغنِيمَة يَتِيمَة في هَواهَا... !

تَستَوقِفُني تِلكَ النَّوافِذ اليَافِعة بِشرهِها المُكابِر ، التي أَفرَغ الطِّلاء القَاتم بِخُضرتهِ الحَالِكة و ذَخيرتِه الرّوحَانيَّة علَى مَعادِنِها النُحاسيَّة ، لِتشْهدَ القَنَادِيل المَعقُودة تَحتَ القِباب عُرساً مُتنكّنًا بالَمهَابة ، و تَرَى الشُّموع تَنصَهِر تَمايُلًا بِرجَاحة نُورَانية علَى أقْفَاصِ مَقامَات أَهْل الله ،

هُناكَ أسْرَاب الخَشيَة تَهبِط علَى النُّفوس الُمتضرِّعَة توسُّلاً بِأوْليَاءِ الله ، لِتُرفَع رَايَات السَّالِكين ، و لِتُضرَب الدُّفوف بِأيادِي المُريدِين ، و يَختَلِط النَّسيم بِالبخُور ، وَ تُقام حَضرَة المَجاذِيب ، و تَميلُ الرُّؤوس مُنتشِية بَعد أن غيَّبهَا الذِّكر ، و يَنحَسِرُ الحَال لِتَخترِق نِصَال العِشقِ قَعر الخَشيَة الرَّبانيَّة ، فَتجِد المُستَغِيثين أشْلائهُم صَرعَى في مَقامِ الشُّهود

2

في دِمَشْقَ
تسيرُ السماءُ
على الطُرُقات القديمةِ
حافيةً ، حافيةْ
فما حاجةُ الشُعَراءِ
إلى الوَحْيِ
والوَزْنِ
والقافِيَةْ ؟

محمود درويش

وكَانَ:

لِدمَشقَ القَدِيَمة حَيٌّ صَغيرٌ بِمسَاحَتِه العفُور ، كَبيرٌ بِشجَاعَة رِجَالِه و نَقَاء أَهلِه ، إنَّه حيّ :

الشَّاغور الدِّمشقِي .

المُلاصق لِمقبَرةِ بَاب صَغِير ، تِلكَ الَمقبَرة التي ضمَّت تَحتَ ثَراهَا ، الأجْسَاد الطَّاهِرة مِن آل بَيتِ رَسولِ الله ، و صَحَابتِه ، و الصَّالحينَ ، و الزُّهاد ، و عَمالِقة العِلمِ ، و الأدَب ، و الشِّعر ، و التَّارِيخ ، و لفَلسَفة ، و الطِّب ،

لِينتفِخَ ثرَى الَمقبَرة يَومًا بَعد يَومٍ ، بِما تَحمِله في جَوف لُحودِها بِنجومٍ مُتلألئَة ، أشعَلَت سَماء دِمشْق بِحكمَة العِلم ،

في وَسطِ هذا العَالم الذي يتلَعلَع اضْطرَاباً ، و يَتأجَّج فِتنَة مُستَعرة ، أَقِف مُتّكئًا علَى قَلمِي عِندَ نَجمِ رِوايَتِنا ،

الذي جَعلَني أكتُبه ،

بَل أرسُمه ،

و أنِحت تَفاصِيله ،

و أسْتَجمَع ضَميمَ ذاكِرتِي ،

لِأردَّ شَيئاً من الفَضلِ ، الذي لَن أنْسَاه مَا حيّيت علَى بِلاط الوَرق حيّاً..

علَى قَارِعة السُّطور ، يَجهَش قَلمِي وَ قَد عبر تِلكَ العَائِلة الدِّمشقيَّة ، التي تُعرَف بِالأصَالة ، و العَراقَة ، و الثَّراء المُتبتّل، إنّهُ ثرَاء مُكدَّس

بالتَّواضُع ، بَل ثَراء رَزينٌ بِعزَّة النَّفس ، و عزَّة الذَّات ، و عِزَّة الجَيبِ...

هُنا عَائِلَة : البِيطَار ،

أكتُبُ عَن أرْواحٍ أصَابَها مسُّ العَفافِ المُعدّ لِلمحبَّة ، و قَد أرغَمنِي الغَرام أن أعْشقَها بِشغَفٍ مُفرطٍ ، فأنَا مولّعٌ بِنجمِهَا الذي يَغلبُ جَمالَهُ عُذريَّة اليَاسمِين ، تَسِير بِي رُكبانِ الشَّوق ، مِن بَعد أن قطَعتُ مسَافةً إلى مَا بَعد الحُبِّ بِطعنَة شَوقٍ و شَهَادة عِشقٍ و سَانتي مِترَات مِن الغَرامِ ،

إلى ذلكَ المنزِل الدِّمشقِي ،

المُصان بِأيادِي ضَلِيعة بِفُنون الهَندَسة المِعمَاريَّة ، التي أبْهرَت عَباقِرة الُمهنْدسِين ، لِبرَاعَة أَزَليَّتِهِ و رُسوخِ كُهوَلتِه ، صَرحٌ راسخٌ علَى قناطرٍ تَاريخية إلى زَمنِنا هذا ، يُزاحِم غُرور الُمستقبَل بِصلابَتِه و قُوَّة مَتانتِه .

ففِي دَاخِل قَلمِي ثَرثَرة فَاضِحة لأن يَشي الحِبر عَن أقْفَار ذلك البَيت المُتغلْغل بِملح أنْفاس الغَابرِين ،

يَرتَجِف قَلمي الَمحمُوم بالذَّاكِرة أمَامَ البَيتِ القَديمِ ، و يُطارِدني شَبَح الحِبر مِن مَحاوِر السُّطور ، و تَزحَف قَشعَريرَة تَحتَ شَرَايين الوَرَق مِن زَوايَاه المُستَدِيرة ،

لِتَستَوقِفُني الذَّاكِرة المُرتَعِدة ، أمامَ هَيبةِ مَن تَروِي مُخيّلتِي عَنهُم،

علَى زُقاقِ الذَاكِرة أو ما يُسمّيه الدِّمشقِيون ؛

بَاب صنْاء :

هُناكَ كُنتُ أرتَعِد علَى شَهقَاتِ نَبضَاتِي مَذهُولاً ، لِتُدشنَ بوصلَة عَيني أجْزَاء التّرس الحَجَري الذي يمْنَع الجُيوش مِن مسّ نقَاء حَرمِهِ ، علَى عَتبَة حَجَريَّة الكَرادِيس ، و قَنطَرة صِخريَّة بازِلتيَّة مُبرحَة الصَّلابَة ، و بَاب خَشبِي مُصفَّح بالنُّحاس المَرقُوش ، قَد نُقش علَى صَفائحِه أحْرُف مُتورّطة الطَّلاسِم يَصْعب علَى عُريّ العَينِ فكَّ نِقابِها ،

مُراوِغة تِلكَ القَنطَرة الأُنثَوِية الحيَاء ، مُتذلّلة بِخجَلٍ ، شَرقيَّة بِوجَلٍ ، قَد تَخطَّى لِلهفَتِها رُؤوسٌ لَم تَنحَني إلَّا إلَى خَالِقِها ،

تَستَوقِفُني الذَّاكِرة ، تَحتَ رصَانةِ

الدّهْلِيز:

و هُو المَمرّ الضَّيق الذي يَسُوق بِتَوجُّسِكَ إلَى صَحنِ الدَّار ، هُناكَ يَقِفُ الزَّائرُون لِيصْرخُوا بمقُولتِهم الشَّهِيرة:

يا الله يا الله

لِتَنبِيهِ الحَرِيم بِأن يَحتجِبنَ بِأسْتَار مَخادِرهِنّ ، كَرِقَّة الفَراشَاتِ الُمتسرّبات فِراراً مِن غَرِيب يَتربَّص بِهِنّ ،

هُناكَ يَنتَابُني هُيَام الخَشْية ، خَالعاً بِطانَة ذَاتِي ، زَاحِفاً علَى انبِهَاري كُلِّي ،

في ذلك السَّوادِ الذي يَسِير بِطَيفِك إلَى النُّور ، يُباغِتكَ شُعُور بِأنَّك كَنجْمةٍ مُتحَايِلة في مَجرَّة مُدقعَة بِالظُّلمَة تتَسوَّل علَى النُّور ، ففِي انتِمائِك إلَى أغْلالِ العَتمَة ، تْمسك بِأطرَافِ شَظاياك أشِعَّة النُّور المُتطَايِرة سَاعِياً مَعَ سَناهَا إلَى عُرسٍ متوهّجٍ.

تَستوقِفُني الذَّاكِرة ، إلَى ذلِك السّحر الشَّرقِي الذي يُسمِّيه أهْل الشَّام .

أرْض دِيَار:

المَعرُوف عِندَ العوام:

صَحن الدَّار ،

الله الله ،

كَيفَ أصِفُ لكَ ذاكَ الفِردَوس الُمرصَّع بِالزَّبرْجَد الَمبحُوح ! ،

إنَّه فَناء شَاسِع مُحاط بِالقَناطِر البَازلتيَّة ، و مَشهَد مُطلّ علَى بَهاء السَّماء يَترقَّب اغْتِيال وَحي الهَواء الرَّحِب في حَرَم الجمَال ، و يتَحرَّش بِذُهولِك عَبثَ اليَاسمِين الُمتدفّق من كُلّ فَجٍّ عَمِيق ، و رَوائح شَذاهَا المَصحُوبَة بِالزُّلالِ الشَّرقِي تَعبُر الأفْئِدة بِنهَمٍ ، لِتُنكِّل في صَدَى النُّفوسِ نَصباً تذكَارِيًّا مَا دُمتَ في فَناء البَيتِ حيًّا ، وَ قَد اِنفَردَت في وَسَط البَيْت بُحيرَة أَوقَعتَها الزَّخارِف شَهِيدة علَى بلَاط جَمالها ، لِيتَدفَّق الَماء مِن أعْلَى تاجِهَا إلَى أخْمَص خَلاخِلِها ، و لِتَترَامَى رَشقَات مِن الماءِ كَحبَّاتِ الياقُوت ، بَل كَوشاحٍ حريرٍ لأمِيرَات رَشِيقَات ، يختَمِرنَ

بِه مِن جَاذبيَّة غُرُورِهِنّ مُضاهِيات جُنون القَمَر ، سَاتِرات وَهج الثُّغور المَصقُولة بِالشِّفاه الُمتوّقدة اشْتِعالاً شَهِيًا.

تَستَوقِفُني الذَّاكِرة أمامَ رزَانَة:

الدِّيوانيَّة:

و تُسمَّى عِندَ الدِّمَشقِيين البَرَّاني ، أو بِالأحْرَى يُطلَق عَليهَا عِندَ العوَام : الَمضافة ، إنَّهُ عِبَارَة عَن مَجلِس يُعقَد فِيهِ الاجتِماعَات الطَّارِئة لِحلِّ قَضَايا الحَيّ مِن أهْلِ العَقدِ و العَزمِ ، و علَى حُدودِه تَصْطفّ الكَراسِي الخَشَبيَّة الَمحفُورة بِالنُّقوشِ الدِّيوَانيَّة ، الُملبَّسة بالصَّدفِ الخُرسَاني ، الَموشُومة بِالفضَّة اليّمنيَّة ، الُمنجّدة بِالحَرِير الفَارِسي ، و تَحتلُّ الجُدرَان السُّيوف العَربيَّة الأصِيلَة مِن الفِضَّة الحِجَازيَّة و النّحَاس الشَّامِي ، وَ في صَدْر هذا المشْهَد الذي يُرهِب الفَرائِص لِجلَالِ كَمالِه البَهِي ، تَتربَّع صُوَر يُخلِّدونَها الدِّمشْقِيون مِن العُلمَاء ، و العُظمَاء ، و بَعْض مِن أقْمَار الُمقاوَمة الوَطنيَّة الذين دَحرُوا الانْتِداب الفَرنسِي ، مِن أمثال :

الُمحدّث الأكبَر المجدِّد العَلامَة الشَّيخ ؛ محمّد بدر الدّين الحسني،

و العلَّامة الشَّيخ : بَهجَت البِيطَار ،

و القَائِد : يُوسُف العَظمَة ،

و القَومِي الثَّائِر : حَسَن الخرَّاط ،

و الشَّاعِر الكَبِير الرَّاحِل : نِزَار قبَّانِي ،
إنَّهُم يُخلِّدُون تِلكَ الصُّور علَى مَقبَرة الحَائِط ، مُتبرّكين بِالصَّالحِين ، مُتفاخِرين بِالُمجاهِدين ، وَ مُتبَاهِين بِالقَومِيين ، أولَئِكَ السَّادة القَادة : الَّذين رَسمُوا بِدمائِهِم حُدوداً لِوطنٍ بِحاجَة إلَى عِزَّة تُرَاب ، و كَرَامَة لِساكِنيه مِن شَعب يَبحَث عَن كَرَامَةٍ.

تَستَوقِفُني الذَّاكِرة أمَام فِتنَة
صَحن الدَّار :
هُو صَحْن مَفتُوح ، مُرتَفع الأعْتَاب ، مُطلّ علَى فَناء الدَّار ، يُطلِق علَيهِ الدِّمشْقِيون : الإيوان ،
يَغزُوه كَنَب مُنجّد بِالحَرِيرِ التُّركِي ، و زَخارِفٍ مُخثَّرة علَى الجُدرانِ ، بَارِزة تِلكَ الرُّقوش تَقُود بِرَعْشَة جَوارِحِك إلَى تَصفِية حِسَاباتِك الإبْداعِية مَع صَمتِهَا الصَّاخِب بِالأنَاقَة ، فَهُو مَكانٌ لِلسَّمر و السَّهرِ ،
فقَد شَهِدَت زَوايَاه التي يَتسلَّل وسْوستهَا جَدائِل الزَّرع المُخضرّ ، صَدَى كوكَب الشَّرقِ كَما يَحلُو لِلبَعض تَسمِيتهَا : أمّ كلْثوم ،
في كُلِّ عَشيَّة في السَّاعَة ؛ التَّاسِعة مَساءً..
عَبرَ إذاعَة : رَادِيُو . إف . إم . دِمَشْق ،
بِصَوتٍ يَصْدح بِالعِشْقِ الفِرعَوني ، تسْقِي بِكُؤوسِ النَّغمِ الشَّرقِي أَفْواه الأوْرِدَة ، عَابِرة بِمَقامَات الطَّرب كُلّ سَرادِيب قَلبِك ، إنَّها كَوكَب الغِنَاء

و مَجرَّة النَّغم ، و سمَاء الفَنّ الرَّاقِي الذي لَا يُضَاهِيه جَبرُوت غِنائِي ، الُمذيع كَما في كُلِّ مَساء و بِصَوتٍ خَشِن عَابِر لِلرُّعب:

أعِزَّائي المُستَمعِين أسعَد اللهُ مَسَاءكم بِكلِّ خَيْر ،

نَنقُل إلَى مَسامِعكُم صَوتَ كوكَب الشَّرق أُمّ كلْثُوم ، حَيثُ سَتُغنِّي هذه اللَّيلة ؛ أَغداً ألْقاكَ ،

و تُذعِن النُّفوس إلَى الصَّوتِ الَملائِكي ، لِيُرافقَهُ فِنجَان مِن القَهوَةِ الذي غَلَب علَى مَكامِن عَبقِه رَائحَة الهيل المُبهر ، و النّرجِيلَة بِنكهَاتِها الَخلَّابَة ، التي لَا تخْلُو الأُمسيَّات و شَجَن الطَّرب الأصِيل إلَّا بِوُجودِهَا

تَستَوقفُني الذَّاكِرة أمَام شُمُوخ ،

الَمشرَفيَّة:

و هِي عِبَارة عَن مَسَاحَة صَغِيرة ، و قَاسِم مُشتَرك مُعلَّق بَينَ السُلَّم الحَجَري وَ غُرَف النَّوم في الطَّابِق الثَّاني ، هُناكَ زَحفَت أغْصَان العِنَب ، لِتمتَطي غُرُور السلَّم الصَّاعِد إلَى الفَضَاء ، و لِتنْشرَ أوْراقهَا الشَّاغِرة عَابِرة بِبَعثَرتِها المُتناسِقَة كُلّ شَهيَّة إبْداع ، تُراوِغ تُخمَة خَيرِهَا قُطوفاً مَحمُومة بِعَناقِيد العِنَب الُمتدلِّية ، كَثُريَّة كرِيستَاليَّة تَسبِي الأرْوَاح الآبِقَة في مَعَارِكِها الفَنِّية ، فَكَم مِن ضَحكَاتٍ و أحَادِيث دَارَت علَى عُقم ارِتقَائِها ! ..

إنَّها مُعجِزة الفَنِّ ، تَجعَل لِلجَمادَات أَلسِنَة تُخرِجكَ عَن طَوْر صَمتِها ، لِتَهذُر لَكَ عَن عُذريَّتِها الشَّرقيَّة.

تَستَوقفُني الذَّاكِرة:

تَحتَ شَغفِ تلكَ العَائِلة الدِّمشقيَّة ، الَّتي كُنتُ ابناً لَهُم ، وَ أَخاً لِابْنهِم : عِصَام البِيطَار ،

ذلكَ القَمَر الْمتَأجِّج سُطوعاً في رِوايَتِنا ، وَ المَلاك الْمتوَّج اشْتِعالاً في قِصَّتِنا ، و النُّور المتوهج ذَوْقاً في حِكايَتِنا ، وَ أمَام هَيبَة الأُدبَاء ، و رَهبَة الْمؤرِّخين ، و فَصَاحَة الشُعرَاء ، و رُقي الكُتَّاب ، فإنِّي أكتُبُ بِصَوتِ القَلَم الشَّامِخ ، و ضَجِيج الحِبرِ العَالي:

و عَهداً علَى مَشَاعِري المُتصلّبة حُبًّا و شَوْقاً لَهُ ، بِأن أكتُبَ عِبارَاتٍ كَالرَّحيقِ المُصفَّى ، تَخلِيداً لِدمَشْق ، و وَفاءً لِتُرابِها ، سَأُنفِذ ذَخِيرة حِبرِي عَابِراً مَلامِح عِصَام البِيطار ، مُنتهياً حَيثُ يُنهِي الْمغرَمون ولعِهم لِدمَشْق ، سَأستَدرِج مِن وَحي الأحْرُف نَسِيجاً مُحاكاً بِعبَاراتٍ شَرقيَّة الكَمال ، لِأنقُل إلَى مَلاجِئ قُلوبكُم،

قِصَّة شَاب دِمَشْقي كَانَ يُلقِّبونَه الدِّمشْقِيُون ؛

أبُو الفُقرَاء و الدَّرَاوِيش.

3

قَمرٌ دِمشقي يُسافرُ في دَمي
و سنابل و خمائل و قِبابُ
و الحبُّ يبدأُ مِن دِمَشق فأهله
عَشقوا الجمَالَ و ذوّبُوه و ذابوا
و الماء يبدأُ مِن دِمَشقَ فأينَما
أسْنَدتَ رأسكَ جدول ينسَابُ

عائض القرني

و كَانَ ،

عِصَام البِيطَار ،

شَبِيهاً بِمَلامِحِ دِمَشقَ ،

مُحصّنٌ بِشَذا الشَام ، مُدجّج بعبقِ اليَاسَمِين ،

و شُموخ الشَامِ ، ذَلِك الخضم المُتقد بِسَنَا الفِردُوس ،

المُنغَمس بعتمةِ الكَونِ الحَالِكِ بالظُلمِ و الظَلامِ ،

تلك البِقَاعِ المُقَدَّسة التي لم تَرتَوِ بَعد من احتِدَامِ الدِمَاءِ المُخَثَّرة ، و التي اغتَالت أحاسِيسِنا على كفّةِ الطُغاة ،

تلك السَّماء اليَتيمة التي أظلّت أحلامَنا البَريئة ، مِن بَعد أن أصبَحت فَناء رَحبِها تلهَثُ على أجوَائها طَائرات العِدى ، لِتشقّ صَدى السماءِ بِلا تأشيرةٍ للسَّلام ، و لتَغتصِب غشَاوَة وطنٍ عُرفَ بِعُذريتِه المُصانة ،

تلك السُّهول الخَصبَة المُتراشِقة بخيرات عَرَقِنا و صُمودِنا ، و اليَوم أضحَت كَثوبٍ مُخضّب بالألغَامِ ، و مُطرّزٍ بالرُّعبِ ، و مُحاكٍ بوَحشيّةٍ عَلى مقاسِ الذُّعر ،

تِلك الجِبال الَّتي كانَت فُرسانًا مُترجّلة عَلى شاكِلة وتدٍ لمُواجهةِ راياتِ الفِتَن المُحمّلة بالشَّر ، و اليَوم و لِلأسَف أصبَحَت مَوطناً يتخفَّى بَين ثُغُورِه أعدَاء الوَطن ،

تِلك السَّواحِل الَّتِي تموج كَرماً و نعِيماً على شَواطِئنا ، هُناك علَى رِمالِ الوَطنِ كُنَّا نَرسمُ مُستقبلاً وسيماً يذبُّ عَن أرضِنا بوَائق الرُعب ،

لِيَرمِي بِأحلامِنا خلفَ مُفخّخاتِ البَوارِج التي إعتلَتها قَذائفَ الموت المُفجِعة ، مُجتَثّية أرواحاً أخرَسها الفزَعُ ، وَ شَرَّدَهَا الهَجْرُ ،

عِصَام

شابٌ تُضاهي بَهجتهُ بَسمَة وَطَن ،

خلَّاب الُمحيَّا بجمالِه ،

نَعَم إنَّه جَمِيلٌ : بِفَرحهِ ، بصَخبهِ ، بسُكونهِ ، بِدَمَارهِ الأخِير..

أقِفُ ممتثلاً أمَام الحِبرِ و الوَرَق ، واصِفاً ذلِك الفَتَى الرقْرَاق ، المُتَورّط بِتُهمة طلّتهِ التي تتدفَّقُ بَهاءً شَرقيًّا ،

أصِف لَكُم نَظَراته:

عَيناهُ كحَجَرانِ عَقِيق ، وَقَعَتا عَلى كَتفِ أسْتارِ الكَعْبَة في لَيْلَةِ القَدرِ ، كأنَّهُما مِن قُوَّةِ وَبصِهما اللُّؤلُؤ وَ الُمرْجَان ، وَ لُهمَا لَمعانٍ كبَرِيقِ اليَاقوتِ المُستَخلص مِن وَهَجِ البَدْرِ ، ذلِكَ الوَهَج الَّربَّاني كَحَرْفٍ قُرْآنِي مَرْشُوقٍ عَلَى حُجرةِ رَسُولِ الله ، يتَمسَّحُ بِهِما العاشِقُون تبرُّكاً وَ شِفاءً ، فَبِأيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَان ، و لِتحْديقِه بِالأشْيَاء سُكونٌ مُباغِتٌ بَل عَابِرٌ لِلاخْتِزالِ الُمؤثِّث بالتحرّي ، و لِنَظَرَاتِه المُرتَعِشَة حَياءٌ و ارتباكٌ مُقحَمٌ بِالخَجَلِ ، و تذلُّلاً حَمِيماً فَلَن تَجِدَ لِتَحاشيها مَثِيل ، نَظَرات أجْهَشَها الدَّمع مِن أَلَم الَوطَنِ الغَارِق بوَحلِ الفَسَاد.

أصِفُ لكم صمْتَه:

علَى أعْتابِ الصَمْتِ يعْتَزِلُ الكَلامُ مَهَامهُ الصَاخِبة بِبَراءة ، وينسَحبُ بذهولٍ جاراً مَعَهُ حَرَائق الضَّجِيج و شَراسَة الثَّرثَرة الصَّاخبة ، فَفي صَمْتهِ تجلّ مَحمومٍ بالَهيبَة ، كأنَّما الوَحي هَبط لِيَختم رَسَائلَهُ الشَّرقيَّة تحتَ رَهبَة الذُّهول ، و في صَمتِه فَلْسَفةٌ دِمَشْقيَّة شاحِبَة بِالأمَان تُجيدُ التّحْلِيق رُبَّما إلى السَّكِينة أو إلَى الحُبِّ ، و في صَمتِه انتَكاسَاتٍ مُغرية تُجرّدك مِن استِنباطِ ماهِيتِها بِشغَفٍ ، و في صَمتهِ أغْلالٌ مُؤصَدة بالشَفقة على بؤسِ الفُقَراء و تَعَاسَة الَمساكينَ وَ جِراح البَائسِين و أَنِين الَمظْلومِين ، و في صَمْتِه هُدوءٌ يطْرَح الشُبهة المُضرِمة بالتَّفوه..

أصِفُ لَكُم تَوَاضُعَه:

لم يَكُن شيخاً مُلجماً بالعِلم ، و لم يَكُن مُرِيداً سالكاً دَرْب الذِّكرِ ، بَل كَانَ شابًّا يافِعاً بِالحُبِّ و الحَنَان ، وَ طالِباً جامِعيًّا كَبقيَّةِ الطَّلَبَة في جَامِعةِ دِمَشْقَ ، في السَّنة الثَّالِثة في كُلِّية الآداب ، و مَعَ انَّهُ فَرداً لعائلَة مُنتفِخَة بالثَّراءِ لم يكُن مُتفاخراً أو مُتكابراً على الخلقِ ، بَل عَلى عَكْس ما يدورُ في مُخيّلتِك ، إنّهُ ابنٌ لِتاجر رَفيع الجَاه ، قد شَقّت سُمعتهُ النقيَّة صَدى الأسْواق الدِّمَشقِية ، لَقَد كُنتُ أركبُ مَعهُ في الحَافِلةِ الُمتَّجِهة إلى الجامِعَة بِشكلٍ يَومِي ، و نَعود مَشيًا عَلَى الأقْدَامِ ، لِنَجوبَ المَكاتِب بَحثًا عَن الرِّوايَاتِ الأدَبيَّة ، لَقَد كَانَ بسّاماً لجمِيعِ النَّاس بكافَّةِ طَبَقاتِهم الثَّقافيَّة و العِرْقِية و الاجْتِماعِيَّة ، عَرفْتُ فِيهِ أدَقّ الخِصال كَمُواضبَتِهِ

على الصَّلاةِ و الصِّيامِ و بِرِّ الوَالدينِ و حِفظِ الحُقُوق كافّة ، لقد اسْتَطاعَ أن يُلقِي بالكِبرِ خَارِج أسْوارِ قَلبِه ، و كَما أنَّ لهُ صدراً ناصِعاً بالطُّهرِ ، لِيفيضَ فِيه رَأفَة لا تُماثِلُها رَحمَة ، فلَقد كنتُ خَليلاً و صَديقاً مُلازِماً لهُ في كلِّ حَرَكاتِه و سَكناتهِ ، و بِئراً غائِراً لأسْرَارهِ يودِعها لَديَّ لِأنَّه يَرَى بي صنْدوقاً مُضرماً و مُحكماً بالسِرِّ ، و بُوصلَة تتَّجهُ مَعهُ إلى نَهلِ العِلم و اكتِسابِ الأخْلاق و اقْتِباسِ الأدب..

أصِفُ لكم جَمال رُوحه:

لقد كان أكثَر ما يميل إلى شَهَية زَهرةِ الجردينيا العَابِرة بِأرِيجِها كلّ طُرق الإشْتِعال ، و كَان طَويل القَامةِ كنَصبٍ عُنفُوانيٍ مُبهَّرٍ لِلقُلوب طارقًا رأسَهُ مُنحنياً بِهالة مُربَكة بالتَّواضُع ، و بثِيابٍ أنِيقةٍ جذّابةٍ مُتناسِقةٍ بشُجونِها يَرتَديها أو ربَّما هِي تَرتَدي جمالهُ اليافِع.

فلَيْس كُلّ ما يَلبسُك يُجمّلكَ و إنَّما كلّ ما تلبسهُ يجمّلك بِتواضُعِك .

فَتجد المُغترّين بجمالِهم قبّحتهم الغطْرسَة ، و المتواضِعين بِبسَاطتِهم جمّلَهُم التَّواضُع .

و لِيلفَّ عُنُقه وِشَاح كالسُّحبِ التي تحَملُ في رَحِمِها طُقُوسِ الخير المُتعَانِقة بِتلَابيبِ بَدرٍ لِتوّهِ قد اكتَمَل ، و لكأنَّ الَملائكَة تَسوقُ بهِ إلى مِحرابِ النُّور ، و هُوَ يسُوق بِها إلى صَوامِع النَّقاءِ ، إنَّه نَقاء التَّجلّي الإيَمانِي بِجاذِبيَّة صَفائهِ ،

فسُبحان مَن صوّرَ ثمَّ ركّبَ ثمَّ خَلقَ ثمَّ ابدَع ،

سَقاهُ البَديعُ جلَّ جَلالهُ ، جمالاً جذَّاباً مَجبولاً بِالذُّلِ و التَبتُّل،
إنهُ الإبْداع ، عِندمَا يتورَّطُ بِتفَاصيلِ النُّور ، يُضيفُ من لَمسات السحرِ الشَرقي توقُّداً ، لِتقِفَ على حافَّة أنفاسِكَ مَذهُولاً..

4

سلامٌ مِن صَبا بردى أرقُّ
و دمعٌ لا يُكفكفُ يا دِمشق
و معذرةِ اليَراعة و القَوافي
جلالُ الرزءِ عن وَصفٍ يُدقُّ

أحمَد شَوقِي

و كَانَ ،

عِصَام البيطار ،

عَلى شاكلةِ فَجرٍ مُبعثر ، تُحاصِرهُ رَتَابَة السَحر، يرسُو بِنورهِ يابسة العَتمةِ المُدلهمّة بالظلام ، فكان يتسَللُ خِلسة من سريرهِ سَالِكاً أكنَاف الثُلث الأخيرِ من الليلِ ، إنها لحظاتٍ لتجَلّيات الَمْولى على الخَلق ، هُناك نِداء الحقِ في كلِ ليلةٍ يصدَح لِمن لهُ حاجة فيقول :

من يدعوني فاستَجب له ! ،

من يسألُني فأعطيه ! ،

من يستغفِرني فاغفر له.. !

ليستيقظ عصام و يُنهِض معه ملامحَ وطن غارقٍ بالفِتَن ، يرُتّب ما خلَّفهُ التَثاؤبُ من غُبار الغَبشِ على وجهِهِ ، لينفُضَ ارتباك الغطاء و يساوي بينهُ و بين الوسائدِ محاولاً تهذيبَ بعثرتِها ، يموءُ واقفاً على فراسة قَدمِيهِ قاصداً بركة الماءِ التي ألجَمها الصّمتُ في فنَاءِ الدار ، يمسحُ شَظايا ما تبقّى من كسلٍ بماءِ الفِجر النَدِي ، فيُمَرّر الماءَ على أعضائهِ مُستفتِحاً بِبسمَلةِ الوضوءِ ، يُزيل ما عَلِقَ على جَسَدِه من بللٍ ، يرتدي ثيابهُ على عجلٍ ، و لكأنهُ على موعدٍ مع الحقِ...

يُودّعُ أعتابَ بيتهِ بِقُبلة يضعُها على قفلِ البابِ الُمزركش بمِفتاحٍ نُحاسيٍ مرقوشٍ بتموّجات مُطلسَمة ، لتَسُوقهُ خطواته سالكاً أزقّةِ المدينة القديمة ، تلفَحُه شَراشِف الجلدِ قَشعَريرة الخشية من كل حَدبٍ و صوب

، إنها أشجان المُوشَّحَاتِ التي تَترنّمُ بِها مَنَارات مَسجِدِ بَني أُميّةَ الكَبِير ، و تَهِبُّ تلك التضَرُّعَات مصحُوبة بِالنَدى لِتَجتثّ جِيوش الإرتِعَادِ من مَضَاجِع أورِدَتِها ،إنهُ عُرس المآذِن الأمُوية الذي يَفرُش صدى النور في القُلوب المَلكُومَة ، لتُذعِن الأرواح لتَضرُّع المُبتهِلين في حَضرة السَحَر ، و بأجواء نقية و حناجر شجية يهتَزُّ فجَر دِمَشْقَ طَرباً إيمانِيًّا ، إنهُ مشهدٌ يبعثُ في شُقوقِ الجوفِ رهبة ترتَعشُ لها الأبدانُ.

يَصِلُ عصام بِشُوقهِ إلى البَوابة الغربِية للجامعِ الكبِير ، و تموجُ روحهُ بين أروِقةِ ذلك الصَرحِ الإسلامي الشَّاهِق ، الّذي أَمرَ بتشِييدهِ:

الوَلِيد بن عبدِ المَلك ،

في عام 705 هجري : ،

و يُعدُّ رَابِع أشهَر المسَاجِدِ الإسلامية بَعدَ الحرمِ المكّي و الحرمِ المدَنِي و المسجدِ الأقصى ، و قد تَوافد أكابِر المُهندسين و الصُّنَاعِ من الهُنودِ و الفُرسِ لتصمِيمِه و بنائهِ ، و حَشدَ مِئة وَفدٍ مِن البِيزَنطيين لتَزيينِ السَقفِ و الجُدرانِ و الأعمِدة ، بالفُسيفِساء و الرُخام ، و قد تَميّزَ بأنهُ أوَّل مسجدٍ ظهرَ فيهِ المِحراب ، فَفيهِ أربعةَ مَحارِيب ، فكانَ لِكلِّ مَذهَبٍ في العهدِ العُثماني محرابٍ على حِدى ، بسَبب التَعصّب الذي يقطِر دماً مسفوكاً باسمِ الدِين ، و اللهُ و أنبياؤهُ و رُسلُه من تبَجّح تَفُرّقِهِم بَراء ، كبراءةِ الذئبِ من دمِ يوسف...

فبوصولهِ إلى محرابِ أبو حَنيفة النُعمان في الجِهة اليُمنى بجانبِ البوّابة القِبلية للمَسجِد ، لِيشهِر مؤذّنونَ الأموي حَناجِرهُم شَاخصة بصوتٍ واحدٍ و بأذانٍ جماعي:

الله أكبر الله أكبر ...

و لينَسلّ إلى صَقِيعِ فَرائِصكَ رياح الأصوَاتِ المُغبرّة بِصَبا المَهابةِ و الخَشيَة ،

خمسةَ عشر مؤذّنًا يُنازعونَ بحناجِرهم ذَلكَ الفَضاء المُنشغِل برفعِ ستائِر العَتمة ، مُعلنين ملحَمَتهُم ضِدّ بَسالة الظلامِ ، ليخثُموا تناسُقَ صَدحِهِم بِدحرِ كلّ شِيطانٍ مَارِق خَلفَ أسوارِ دِمشق ،

الصلاةُ خيرٌ من النّوم...

يتسَرّبُ أهل الشَامِ عابرين شُحُوبة الأزِقّة البَالية ، و المَنازلِ العَتِيقة ، و الشَوارِع التي تَحمِل أسمَاءٍ مُخلّدة ، كأسرابِ النحلِ زحفاً و مشياً و هرولةً قاصِدين صَلاة الفَجرِ ، بمشهَدٍ يومِيٍ ليسَ لرَهبتِهِ مَثِيل ،

على الصَفوفِ المُترامِيةِ في ذلكَ الصرحِ الإيمَاني ، تتَعدّد المَشاهِد و المقصُود واحدٌ أحدٌ لا شَريكَ له ، فمنِهُم مُصلٍّ ، و مِنهُم دَاعٍ ، و مِنهُم مُستَغِيثٌ ، و مِنهُم مُستَجِيرٌ ، و مِنهُم سابقٌ بالخِيراتِ ، و ما بَدّلوا تَبدِيلاً...

و بعد ركعتَينِ لتَحيّةِ المسجِد التي أنهَاهُما عصام ، تُرتفعُ الأصواتُ مُعلنةً بِدء مَراسِيم صلاةِ الفَجر ، لِتَحتَشد الأقدَام مُثبّتة باستِسلامِها و

عُبوديتِها جَاذِبية الأرضِ و مَسارِ دوَرانِها ، يُكبّر الإمامُ ، فَيُكبّرُ جُموعِ المُؤمنين واقِفَين كالأوتَادِ المُنتَصِبة التي عَلى رؤوسِها الطَير ، مُعلنة انكِسارِها و خُضوعِها لِمن تُذعِن لهُ الأعنَاق ، على مائِدةِ الله تنكَبُّ القَاماتُ على نبَضاتِها خاشِعةٍ ، مُرتدِية لِباسِ السَكِينة مُمتطية أسنِمةِ التَقوى مُنتَعِلة رَحابة الهَلع ، لتُباغتَهُم فيوضاتِ الوَقارِ على أقفارِ تَبتلِهِم ، فتُحَلّق أجنِحة مُهَجِهِم ، لِترسُو بخفقَاتِهم على غُموضِ سَكِينَتِهم ، و على شَفِير رَحمَة الله يتَوسّدُون بِمُناجاتِهم ، فَحَاشَاهُ أن يَرُدَّ تلكَ الشِفَاه التي رفَعَت تَوسُّلها إلى من عِندهُ تُقضَى الحَوائِجُ ،

يُنهِي الإمَامُ صَلاتَهُ:

السَّلامُ عَلَيكُم و رَحمَةُ الله..

و يختُمون صَلاتهم بسَلامِهِ ، فينبَثِقُ في سكونِ الأجواءِ تمتَمة مُضمرة بالتَسبِيحِ و التَهلِيلِ كهَديلِ الحَمامِ..

و لعِصَام بعد صلاةِ الفجرِ برنامج في المَسجِدِ الأموي ، فلا ينصَرِفُ قبلَ أن يشهَد بحُضُورهِ دَرس الفجرِ ، الذي يُقِيمهُ ،

علامَةِ بلِاد الشَّام و مُفتِي الأحنَافِ و شَيخ القرّاءِ و مُربي الأجيَال الشيخ الربَّاني:

عَبد الرَزَّاق الحَلَبي..

تحتَ قُبَّةِ النَسر يُصغي المُريدون لإرشَاد المُربّي ، و قد شَدّوا أوتارِ مَسَامِعَهُم بِسلوكٍ مُطرِق ، تحتَ تِلكَ المَهابة الربَّانية يَنبلجُ نُور الشَمسِ

عابِراً النَوافِذ الصَاخِبة بالألوانِ المُزركشَة ، لِيستأنِفَ الشَّيخَ موعِظتهُ إلى يَومِ غَدٍ مُعلِناً انتِهاءِ الدَرس

يتَّجهُ عِصام إلى مَقَامِ ،

النَّبِي : يحيى بن النَبِي زكَرِيا ، عليهُما السَلام.

المَعرُوف في الإنجِيل : يوحنَّا المَعمَدان ، عليهِ السَلام.

لِتَتَسَرّبَ الأعناق ، مُتَدفّقة ، مُتبّركة ، مُتمسِّحة ، بالقَفص النُحاسِي الذي يَحمي رُخام الضَرِيح الشَّريف ، في حضرَةِ صاحب الرَمسِ ، يطُوفُ السَالكون بحاجَاتهم ، متوسِّلين بِبَركة المَكانِ ، بأن لا تُردّ استِغَاثَتِهم ، هُناك حولَ المَقامِ يُجاوِرُهُ دَرَاويشٌ ، قد مَنَحَهُم اللهُ أصَواتًا تُنشدُ الموالِد الشَّرِيفة ، لمدحِ النبي:

محمد الهَاشِمي القُرشي..

فكان عِصام يحَشو جُيُوبهم بالمَالِ ، هامِساً في آذانِهِم بِلهجةٍ عَامَّية دِمشقيّة:

يا سيّدي دخِيلك ، على حُبّ النَّبي إدعيلِي ، و سمِّعنَا مَولِد على حُبّ سِيدنَّا يحيى..

فتَتَجاهَرُ الابتِهَالات قاطِعةً تَهَكُّم الصَدى بِحناجِرٍ تُطرَبُ لِشَذاها الأفئِدة ، لم يَلبَث العَاشِقون على سُكُونهم ، حتّى تَرى الرُؤوس تتَمَايل ، مِن بَعد أن أوقَعهم الوَجد سُكارى ، هُناكَ تَلتَئمُ الأرواحُ من الجِراح ، و

تُشفَى القُلوب من القُروحِ ، و يَخمدُ لظَى الهوَى مِن اضطِرامِ الشَهَوات ، و تُسكَبُ الدموعُ على الآمَاقِ مِن تَجَلّيات خَشيَتِها ،

ليختُم عِصَام فَجرهُ المُتوهِّج بِالنّور ، بِرَكَعَاتٍ من صِلاةِ الضُحى ، في حَضرة مَقَامِ

سِبطِ رَسولِ الله و حَفيدهُ و سَيد شَبابِ أهلِ الجنة:

الحُسين بن عَليّ بن أبي طالبٍ الهَاشمي القُرشي ،

تحتَ وطأةِ الرَّهبَة و القَشعَرِيرة التي تَتَربصُ بالمُتَبرّكِين ، مِن خلفِ أقفاصِ ضَريح أبا المظَاليم أبا عَبد اللهِ الحُسين ، تَتسَلّق غَفوة البخورِ التي تَبعَثُ في النفسِ هَيبةِ آل بَيت رَسول الله ، هنا يَقفُ قَلمي أمامَ تلكَ الأبيات لأحد الشُعراء العِراقِيين العَاشِقين لآلِ بيتِ رَسُولِ الله:

جُبنا مَقامَاتِ الكِرامِ فَلم نَجِد

مِثلَ الحُسِينِ مَقامٍ في الكُرماءِ

هَذا الذي بهِ تَنجَلي حُلَكُ الدُجى

النورُ مِنهُ يَشعُّ في الأرَجاءِ.

5

قرأتُ مجدَكِ في قَلبي و في الكُتُبِ شآمُ
ما المجدُ ؟ أنتِ المجدُ لم يَغِبِ
إذا على بَرَدى تأهَّل بي
أحسسْتُ أعلامَكِ اختالتْ على الشّهُبِ

سَعيد عَقل

و كانَ ،

عِصَام البِيطار ،

يَخرجُ من مَسجِد بَني أُمية الكبِير يُسابِقُ خُيوط الشَمسِ التي تَغزو فَجرَ دِمشق ، سَالِكاً سُوقَ البّزُورِية الذي يَقع جَنُوبَ الجَامِع الأمَوّي ، الُممتدّ بينَ قَصرِ العَظمِ و سُوقِ الصَاغَةِ شَمَالاً ، إنَّهُ سُوقٌ مُخمَّرٌ بأقوَاسٍ حَدِيدِية يحَجِبُ أنُوثَة الضُوءِ المُتَسِلِلِ إلى جَوفِ السُوقِ ، و قد عُرِفَ بسُوقِ العَطَّارين ، و يَحتَوي على حَوانِيتٍ منَ الأعشَابِ الطِبية ، و الفَواكهَ المُجَفَفَة ، و التَوَابِل بِكَافَةِ أنواعِهَا ، و الشُمُوعِ ، و السِكَاكِر بِنَكَهَاتٍ مخُتَلِفَة و أشكَالٍ أنِيقَة و ألوانٍ بَهِيةٍ...

السَاعة 40 : 06 ،

بِتوقِيتِ النَدى ، بِتوقيتِ الخَيرِ المُتَحَرِش في قُلُوبِ الطَيبِين صباحاً ، يَصِلُ عِصَام إلى فُرنِ أبو فَرحَان في بابِ جَابِيّة ، أحَدِ أبوابِ دمشقَ القَدِيَمة ، و بِلهجة دِمشقِية على بَابِ الفُرن:

عِصَام:

الله يّصَبّحَك بِأنوار سيّدنَا النَبي عَمّي أبَو فَرحَان ، يسعِدّلي هالوِجه الحِلو تَاج رَاسِي..

أبو فَرحَان:

يسعِدلي صَبَاحك عَمّي عَصَام ، الله يِتقَبَل مِنَك يا مَرّضِي...

عِصَام:

مِنّا و مِنّكُم عَمّي ، جَاهزَّة الأمَانة عَمّو! ؟..

أبو فرحان:

كَالعَادة عَمّي عِصَام خَمسِين رَبطِة خُبز ، كُل رَبّطة فيها كِيلو خبز ، الله يتقَبل مِنّك ، و يخليّلكُون أبوكُونّ الأكابِر..

بيَدِين طاعِنَتَينِ بِالخَير يَحمِلُ الخُبزَ ، بَعد أن دَفَعَ لهُ مَبلغاً مِنَ المَال مُقَابِلَ الخُبز ، ثَقِيلة تِلك الأكيَاس على أصَابِعِه يحمِلُها بِصُعُوبة ، بين كلِ خُطوةٍ و خُطوة يضَعُ بأحمَالهِ أرضاً ليَستَرِيح ، العَرقُ يقطرُ مِن جَبِينِه و قد أحمرَّ وجهُهُ من الأوزانِ الثَقِيلَة التي أتعَبَت كَفّيه ،

يجُرّها بِصُعُوبةٍ و لهفَةٍ إلى أفواهٍ مَلهُوفةٍ ، يَصل بأثقَالِه إلى مَسجِدِ : درويش بَاشَا أو المَعرُوف بين العَوام بمسجِد:

الدرويّشِية الذي أنشَأهُ دَرويش باشَا بن رُستُم باشَا...

على الجُدرَانِ الخَارِجية للمَسجِدِ يَفترِش البُؤسَاء ضَنكِ شَقَائِهِم ، يَتَرقَّبُونَ الأرزَاق من الُمتَصَدِقِين ،

فَكَلِمَة : فَقرٍ لوحدِهَا تَقصمُ ظَهرَ مِزَاجِكَ لِمُجرد مُرُورِها في ذِهنِك ، فَمَا بَالُك بمِن يعِيشُ جزئِياتِ يُومِهِ ، و قد سَطَا الفَقرُ على مَا تَبقّى من شَقَائِه ،

فعِندما تَجِد الفَقر في المُجتَمَعاتِ التيِ تَتَغنى بِحَضَاراتِها ، فَاعلَم بأنهُ نَذيرٌ مُغمَّسٌ بِالعَارِ على أغنِياء ذَلِلك المُجتَمع المُتَبختِر بالثرثَرة ، هُناكَ على ضِفَافِ الطُرُقات تَتَربعُ الإعلانَات المُصوَّرة بِميزَانِياتٍ عابِرة

لعُيونِ المارّة ، تُردي الذينَ ابتَلاهُم اللهُ بعُسرِ الحَالِ تحتَ مَخَالِب تِلكَ الصُور ، تَمضَغَهُم الإعلانَات على إيقاعِات ابتِلاع لُعَابِهِم..

تَجتَاحُني غَصة مَملوءة بالأسئِلة و الاستفهَامَات و إشَاراتِ التَعجُّب ، تَنتَحِبُ لها الأجوبة عويلاً مُبهَماً ،

أينَ أصحَاب الحَقائِبِ السُودَاء المَحمومَة بالشُبُهَات! ؟..

أينَ الُمؤخِّراتِ العَرِيضة ، التي تَفترَشُ المَاركاتِ العَالمية من السِياراتِ و الفَنادِق و المَطاعِم ؟.. !

أينَ مَلامِح الأعيُن المُراوِغة ، التي تَحجبُها الصَفقاتِ السِياسِة ، المُحاكة تحتَ طَاولةِ الوَطن ؟.. !

أينَ البُطون المُنتَفِخة غدراً و خِيانةً و مَكِيدةً ، أصحَابِ الشِعارات المُزَيّفة و الإعلانَات المُخَادِعة ؟.. !

أينَ لُصوص الخُبزِ و مُختَلِسون التُراب ؟.. !

أينَ الأصوات التي كَانت تُنافِح عن كَرامةِ البَشر ، و القَضاءِ على جَحيمِ البَطالة ، و جَعلِ من الحُلمِ حقيقة يَليق بوطنٍ خالٍ من الجوعِ و الاستِبداد ؟.. !

لا أحد يستَمعُ إلى دَبِيبِ الفقر ، و لم يَتَذُوّقُوا حَمِيمَ الجُوع ، و لم يَتَنَفّسوا دُخانِ الذُل ، إنهُم لُصُوص أنَيقون قد جَمَّلَهُم الإجرَام ، هَنِيئاً للأُمة العَربية بِهِم ، و يا خِيبَتَاه و كَربَتَاه على حَظِّنا البَائِس..

على بَابِ اللهِ
يَتَرَقَّبونَ رسولاً يَحمِلُ لُهم الخُبزَ ،
في بُزوغِ كُلِّ صَباحٍ يُجفِّفُونَ شَراسةِ جُوعِهِم بِمنَادِيل الانتِظَار ، بِيَدَينِ مَصقُولتَينِ بالخَيرِ يسُوقُ لهُم الخُبزَ الطَازَج ،
يَتَرصَّدونَ بِبسمَته التي عُقِدَ تحتَ لِوائِها حَياءٌ بَاذِخٌ ،
يَنكَبُّ عَليهِم بِلَهفة مُصَافِحَاً أيديَهُم بِخَجَلٍ رَزِين ،
يا نبيَّ الخُبزِ ،
أستَمِع إلى أنِينِهِم ،
صَافِح بُؤسَهُم المُضطرمِ شقاءً ،
أربِت على قُلُوبِهم مَلامِس حَنَانك ،
طُفّ بأرواحِهم التي أردَتها نِصال التَقشُف ،
فكانَ عِصَام يَعرِفهُم بأسمَائِهِم ، يُفرّق لهُم الخُبزَ بأيدِيهم المُرتَجِفة جَفَافاً مُدقِعاً بالخُشونة ، لتَبدوا الأسنَان المُصفَرَّة المُصابة بِعَطبِ الارتِعاش ، فَتُغدِقُ عليهِ الدَعوات من تِلكِ الشِفاه المُتَصَحِرة مِن زُهدٍ في الزَادِ ، و أجفَانٍ أغَارَ على مَحَاورها التَحوّر ، و ثِيابٍ مُرقّعةٍ بالهَوانِ ، ليَردُّون مَعرُوفهُ الصَباحي ، بابتِسامة ، يُودّعُ شَقَاءَهم و فَقرَهم و تَعَاستهم و في قلبه قولٌ ، للإمَام عَلي بِن أبِي طَالب ، كَرّمَ اللهُ وجهَهُ:
لو كَانَ الفَقرُ رَجُلاً لقَتلتُهُ.

6

أعرفُ أنَني مَهما ركبتُ مِن طائرات و قطعتُ مِن مُحيطات و رقصتُ بين القارات ، ما زِلتُ أتسكع في الزُقاق الشامي الذي ولدتُ فيه جيئةً و ذهَاباً ، و مَهما اغتسلت في مِياهِ التايمز و الدَانوب و السِين و الميسيسيبي و الرَاين ، لا تَزَال مِياه بَردى تُبَلِلني وحدها و لا تجُفُ عَيني .

غَادة السمَّان

و كَانَ ،

عِصَام البِيطَار ،

يَطوي كفَّهُ بأكُفِّهِم مُصافِحاً أيدِيهِم الخَشِنة من جَلَفِ الدُنيا ، و بَعد تَصفِية حِسَابَاتِهِ المُحتَدِمة مع أوامِرِ نَفسِه المُستَعِرة شَراسةً ، و لَجِمها بِلِجامِ التَقوى ، تَكسِرُ الشَمس مِلحَ خَجِلِها ، مُثيرةً لِثَام لُعَابِها بجُنُونٍ مُتَربَّصٍ بِجَاذِبِية دِمَشق ،

السَاعة 30 : 07 ،

بِتوقِيتِ بُزُوغِ الشَمسِ المائِلة المُمِيلة المُتَراقِصة المُتَخَايلة من بَعدِ كَشفِ بُرقُعِها ، إنّهُ غُرورُ الكُحلِ المُتَجسّس على سِهَامِ الضُوء ، إنهُ تَعَرّي تَهلُّلِ النَهَارِ من عَبَاءةِ حِدادِ العَتمةِ المُتَهكِّم ، على كَتِفِ الأحياءِ العَتِيقةِ يَسدُلُ النُور جَدَائلهُ ، مُغرياً مُهجةِ الأزِقّةِ التي تستَلَذّ بمُلامَسَةِ الشُروقِ على شِفَاهِ أحجَارِها ، مُعلِنةً تأجُجِ الحَمَامِ المُتعَالي صَدرَ المَنازِلِ المُوقَّرة بالهَيبةِ ، هُنَاكَ ترتَعِشُ أبخِرةِ البنِّ عابِرة حِشمَةِ القَناطِر بِعَبَقِ حَواسِها ، هُنَاكَ على تَبَختُرِ السَوارِي يضَعُ اليَاسَمين بِثَدييهِ مُنفَلِتاً في كُلِّ شَرايينِ الحَياةِ ، و لكأنَّها دِمَشقيّة رَسَت بِشَفيرِ عينِيها لِتُشعِلُ رَغَبات المارة بشَهِيقِ غَمَزَاتِها و زَفيرِ نَظَرَاتِها و بصَمتِها المُتسَرّب عِشقاً على بَلاطِ القُلوب ،

يَلِجُ عِصَام بِقَدميه مَقبَرة : باب صَغِير ، التي تَتَربّع بِجانِبِ : حَيّ الشَاغُور الدِمَشقي ، سَالِكاً السُوقَ النحَاسِين مُتَّجِهاً إلى البَوّابةِ الغَربِيّة

للمَقبَرة ، على شَفِيرِ البوّابة يَغفُو في لَحدِهِ ، العَلامَة ، الُمحَدّث ، المُفَسِّر ، الإمَام : ابن القيّمِ الجَوزِية ،

الذي ارتَقى صِيتَهُ بينَ أهل التَفسِير و العَقيدة و الحَدِيث ، إنَّهُ:

شَمسُ الدين أبو عَبدِ الله مُحمَّد بنِ أبي بَكرٍ بنِ أيّوبَ بنِ سَعدٍ بنِ حُزِير بنِ مِكّيٍ زَيد الدين الأزرَعِي الدِمَشقِي الحَنبَلي ،

المُتَوفّى سَنة 691 : هجري ، 1292 ميلادي ،

فَقَد تَلقّى عِلمَهُ من شَيخِ الإسلامِ:

ابنِ تيمية الحَنبَلي الحَرَّانِي الدِمَشّقي

و طَلَبَ عليهِ العِلمَ سِتَّة عَشَر عَاماً ، و لقَد تَأثّرَ بهِ جِدًّا ، و سُجِنَ في قَلعةِ دِمَشق مع شِيخِهِ : ابنِ تِيمية ، و خَرجَ بعدَ أن تُوفيَّ شَيخُهُ ، سَنة: 128 هِجري ، يَقِفُ عِصَام مُمتَثِلاً أمَامَ قَبرِ الإمَامِ رَافِعَاً يَديهِ قَارِئاً بِفَاتِحةِ الكِتَابِ ، مُتَضرّعاً إلى الله بأن يتَغَمّد روحَهُ في مُستَقَرّ رَحمَتِهِ ، يُمضِي طَرِيقَهُ قَاطِعاً المَقبرة بِسَكينة .

مُتأهّبة تِلكَ الأرواحُ المُتَرامية تَحتَ قَبضةِ التُرابِ تَنتَظِرُ مَجِيئَهُ و دُعاءهُ ، على كَفَّة الثَرى يَدعو بِدُعاءِ دُخِولِ المَقَابِرِ:

السَلامُ عَلِيكُم أهلَ ديارٍ مِن الُمؤمِنينَ و المُسلِمينَ ، و إنَّا إن شَاء الله تعالى بِكُم لاحِقُون ، نَسألُ الله لنا و لكُم العَافِية ،

على المَيمَنة و في مُنتَصَفِ المَمَرّ الضَيّقِ ، تَتَحرّشُ أسمَاءٌ انتَهت صَلاحِيةُ حَياتِهَا ، و على شَاهِداتٍ مُضمَّخةِ التَاريخ ، حَثا الدَهرُ مَلامِحَها.

يُنيرُ حُلكة المُوتِ المُغَيَّب فوقَ عَويل القُبورِ التِي ألجَمَها صَمت قِبَابِ آل بيتِ رسولِ الله و صَحَابَتِه ، لِتَتَدلّى فوقَ المَقَاماتِ ثُريّاتٍ فَارِسيّة مُرصَّعة بأحجَارٍ كرِيستَاليّة ، هُناكَ يَرقُدُ أكَابر الأُمة

السَيّدة : سُكينة بِنتِ الحُسَينِ ،

السَيّدة : فاطِمة الصُغرى بِنتِ الحُسَين ،

السَيّدة : أُم كُلثُوم بِنتِ علي ،

السَيّدة : مَيمونَة فِضَّة ،

السَيّدة : أُم حَبِيبة بِنتِ أَبي سُفيان ،

السيّدة : أُم سَلَمَة ،

السَيّدة : حَفصَة بِنتِ عُمَر بنِ الخَطاب ،

الصَحابي: بِلال بنِ رباحٍ الحَبَشي مؤذّن رسول الله ، الصَحابي : عَبدُ الله ابنِ أبي جَعفر الطَيّار ،

الصَحابي : مُعاوية بن أبي سُفيَان ،

رُضوانِ الله عَلِيهِم أجمَعين ،

يَقِفُ أمَامَ عَظَمَةِ جُثَثِهِم مُرتَعِشَاً لِمَهَابةِ المَشهَد ، مُتَمتِمَاً بأورَادٍ و تَسَابِيحٍ و تَهَالِيلٍ و ابتِهالاتٍ رَاجياً القُرب و البركة ،

على حَرفِ النَوافِذِ المُنغَمسة بالشُّموعِ المُتأجِّجة بالأبخِرة ، يُنزِلُ النُّساك حَاجتهم ، بافتِقارٍ و سَكِينةٍ و وقارٍ يُخمِدون نِيرانِ أشواقِهِم و سَعِير عِشقِهِم لرَسُولِ الله و لآلهِ و لصَحَابتهِ ،

يَدُبُّ بِسَعِي هُيامِهِ قاصِداً ضَرَيح ،

الَحافِظ ، الُمحَدِّث ، الُمؤرِّخ ، الإمِام:

شَمسِ الدِّينِ الذَّهَبي

المُتَوَفّى سَنة 1274 : هجري ، 1348 ميلادي ،

مُفتَتِحاً بالفَاتِحة مُودِعاً طَهارة تُرَابهِ بِدُعَاءٍ ،

رَاجِياً من المُولى رَحمَة تُضَمِّخ بها أركَان رُوحهُ ،

كُلَّ صَبَاحٍ تَكبو نَظَرَاته جَاثية على أسماءٍ خلَّدَها التَاريخ و أفناهَا التُراب كأمثالِ : العُلمَاءِ ، و الأُدَباءِ ، و الُمفكِرين ، و العَبَاقِرة ، و العَمَالِقة ، الذينَ لم يسمَحوا لِلمَوتِ أن يُبَدِّدَ أرواحَهم كَبَقِية الأروَاحِ المَنسِّية ،

و بَينَ تلكَ الفَجائع الخَامِدة تَحتَ ضِيافةِ المُوت يُريحُ عِصَام أحمالَ قَدَمِهِ على شَفَا ضَرِيحِ رَجُلٍ صَنَعَ من الكَلِمَاتِ مُعجِزةً ، إنَّها روح نَقيَّة تَربّى على مَشاعِرها كُلَّ أُدَباءِ العَصرِ الحَدِيث ، إنَّهُ قَبر العَظِيمِ السِّياسِي ، الدُّبلُومَاسِي ، الشَّاعِر الكَبِير الأُستَاذ:

نِزَار قَبَّانِي

الَمولود سنة 1923 : مِيلادِي ،

فَكَانَ عِصَام يَجلسُ على حَافةِ الرُخَامِ حَاشِداً على وَرقِ الذَّاكِرة ، القَصَائِد التي خَلّدها أسُتاذُنا الرَاحِل :

نِزَار قَبَّاني ،

فَمِنها دِيوانِ : قالتِ السَّمراءُ ،

و دِيوانِ : طُفُولةِ نَهدٍ ،

و دِيوانِ : الرسمِ بِالكَلِماتِ ،

و تَزدَحِمُ الذَّاكِرةُ بِقَصائِدِهِ:

فَمِنها : القَصِيدة الدِمَشقِية ،

و مِنها : يا سِتّ الدُنيا يا بَيروت ،

الَمعرُوفة : بالنَكسَة ،

و مِنها : هوامِشٌ على دفترِ النَكسةِ ،

التي أَثارت عَاصِفَة أدَبِية سِياسِية في وَطَنِنَا الَمغبون بِالعُرُوبة ، فَلقَد عَاشَ بَقية حَيَاته في : لندن ،

بَعد أن اغتَالوا زَوجَتَهُ :

بلقيس و ابنه تُوفيق

أَمَامَ السفَارةِ العِرَاقِية في بَيروت ، و قد خَتَمَ قَصَائِدهُ بِقَصيدة:

مَتَى يَلعَنُون وَفَاة العَرَب ! ،

فَوافَتهُ المَنِية في 30 أبريل سَنة 1998 :

و دُفِنَ في مَسقَطِ رَأسِهِ في دِمشقَ ، مَقبَرةِ بَابِ صَغِير.

يُمضِي عِصَام مَسيرهُ مُفَارِقاً قَبرَ أُستَاذنا ، هَامِساً بِدَعَواتٍ كَماءِ السَلسَبيلِ تَروي بِها عَطَشَ رُوحِه.

على أعتَابِ البَوابة الشَرقيَّة للمَقبرة يَخرجُ عِصام تَارِكاً خَلفَ ذاكرةِ المُوتِ ، أنّوارٌ التَهَمتها اللحُود و هَمَّشتها جُيُوش الدُود .

خَارِج المَقبرة و تحتَ فجِائع السَاحة الخَارِجيّة ، يخلُد هناك أَحد كِبار و عَمالقةِ التاريخ ، يضطَجِعُ ذلكَ القَمرُ في غَياهب المُوت إنَّهُ:

الإمِام ، العَلامةِ ، الُمؤرِّخ ، الحَافِظ ، الكَبِير:

ابنِ عَسَاكِر ،

المَشهُور:

أبو القَاسِم علي بنِ الحَسنِ بنِ هِبَةِ الله بنِ عَسَاكِر الدِمَشقِي ،

صَاحِب الُمؤلفَاتِ و التَصَانِيفِ العُظمى ، و من أشهَرِها:

تَاريخِ دِمشَقَ ، الذي يَبلُغ 60 مُجلَداً ،

و : مُعجَم أسمَاءِ القُرى و الأمصَار ،

ليختُم عِصَام مَسِيرهُ ، أمَام ضَريحِ سَيّدِ عُلماءِ بِلادِ الشَّامِ ، و مُحدثِّها ، و عالمها ، و حُجةِ زَمَانِه ، قَاهرِ الجَهلِ ، و الخُرافاتِ ، قَمر الأولِيَاءِ ، الُمحدثِ الأكبر الشَيخ:

مُحَمد بَدرِ الدينِ الحَسَني ،
و الذي لا يَخلو مَتجرٍ أو حَانُوتٍ أو بَيتٍ دمشقيٍ إلا و صُورَتَهُ تَتَربصُ بِجُدرانِها ، إنَّهُ شَيخٌ مُجاهِدٌ مِن كِبارِ الثُّوارِ الذينَ أخرَجوا الاحتِلالِ الفَرنسِي خَارِجَ حُدُودَ الوَطن ،
تُوفِي سَنة 1850 هجري ، 1925 ميلادي ،
وَقَفَ عِصَام بين جُمُوعِ الزَائِرينَ ، رافِعَاً كَفَّيه دَاعِياً بالبَركَةِ ، مُكمِلاً طَرِيقَهُ بين أزقَّةِ الشَاغُور إلى مَنزِلهِ الدِّمَشقِي.

7

أمّا دِمَشقَ فَقد أبدَت مَحَاسِنَها
و قد وَفى لك مُطرِيها بِما وَعَدا
قُل للإمامِ الذي عَمّت فَوَاضِلهُ
شَرقَاً و غربَاً فَما نُحصي لها عَدَدا

مُحَمد كُرد

و كَانَ ،

عِصَام البِيطار ،

يَعودُ إلى مَنزِلهِ في السَاعة:

00 : 08، صَبَاحاً ،

بِنَهَمِ اليَاسَمِين ،

بِتَولّهِ عَبَقِ البُن ،

بِنَزوَةِ أبخِرةِ الخُبزِ ،

بِصَخَبِ النُور الفَوضَوي ،

يَلِجُ أعتَابَ دَارِه مِن بَعد أن أفرَغَ جُيوبَ الخَيرِ في مَكامِنِه ، و بَعد مَا أدلَى بِقلبِه مُمَرَغِاً و مُنكَسِراً و رَاجِياً عَفوَ الله ، يَشقُّ رِوَاق المَدخلِ المُكفَهِر بِتَأجُجِ نُورِهِ ، لِيَجِدَ تِلكَ الأُمّ ، و قد بَسَطَت أصنَافاً من الأطبَاقِ الشَرقِيةِ على طَاوِلة مُستَدِيرة بجَانِبِ البحرَة التي تَعَرَّت مِن وِشاحِها المَائِي ، في فَناءِ الإغرَاءِ العَبَثي،

طَبقٌ مِنَ الفَتّةِ : تِسنِّية ،

و طَبقٌ مِنَ الحُمُّص المَطحُونِ بِزِيتِ الزيتُون : مسَبَّحَة ،

و طَبقٌ مِنَ الفَلافِل ، و طَبَقٌ مِنَ البَيضِ المَسلُّوق ،

و طَبق منٌ الحَشَائِش و المُخَّللات ،

و رَائِحةِ سَخَاءِ القَهُوةِ تُثير في طَيّ الأفئِدَة سَكِينة يَأتَمِنُ لهَا وَحي النَسِيم ، و لِلهُدوءِ وَقَارٌ بَاذخٌ يَشي لعُرسِ الشُرُوقِ غُرُورِ تِلكَ البُقعَة التي تُضَاهي بِجَاذِبِيتِها تَخَايُلِ القَمَر.

السَيّدة الفَاضِلة:

رُقَيَّة بَدرِ الدِين جُوخدار ،

أُمّ عِصَام ، امَرأةٌ دِمَشقيّة ، ليَسَت كَبَقِيَّةِ النِّسَاءِ ، ارتَوت مِن مَنْبعِ بَيتٍ إنِهَمَر مِنهُ العِلم و الدِّين و عِزَةِ النَّفسِ و الكَرَامةِ ، فَلقَد تَشرّبَت مِن صَفَاءِ والِدَها الطَرِيقَة الشَاذُلِية الصُوفِية ، الذي لا يَخلو بَيتٌ دِمَشقِيٌّ إلا و بَايعَ شَيخًا أو مُرَبّياً لِيُوصِلَهُم إلى الله تَعَالى ، فَلقد كَانَت امرَأة ثَرِية بِمَالِها ، غَنِية بِجَمَالِها ،عَفِيفة بِكَرَمِها ، حَكِيمة بِبَسَاطتِها ، لَقد تَسَابَقَ الرِّجال بِلَهفةٍ مَشحُونَةٍ بِالفُحُولةِ لطَلَبِ يَدِهَا ، و لَكِن بَعد مَعركةٍ رَاحَ ضَحِيّتَها أشلاءٌ اصطَفَت على مَهبِّ رَفضِها للرِّجَال ، لِيكَسبِ قَلبَها الرَّجُل النَّقِي ، الَمعرُوف بِأخلاقِهِ العَابِرة لضَمير التَّاجر الصَادِق الصَدُوق ، فَلهُ مَهَابة تَقِفُ لهَا جِبَاه التُّجارِ إكرَامَاً لاسمِهِ ،

إنَّهُ رَجُلُ المُواقِف

التَاجِر الَمعرُوف السَيّد:

بَهجت عبد السَّتار البِيطار ،

شَيخ الأسوَاقِ الدِمَشقِية ، صَاحِب المُهِمَّاتِ الطَارِئة لقَضَاءِ الحَاجَات ، و وَفاءِدُيون مَن تَرَاكَمَت عَليهِ الدُيُون ، و غوثٌ لمن استَغَاثَهُ ، و مُلَبّي

لِمَن استَنجَاهُ ، و آخِذًا بِيدِ المَظلومِ و الفَقِيرِ و المُعسِرِ و المُحتاج ، فَمَأوَى العَجَزة يَشهَدُ أمَامَ الله ما قَدَّمَتهُ أيَادِيهِ البَيضَاءِ ، و جَمعِيات الأيتَامِ و الأرَامِل في دِمَشقَ لو نَطَقت لمَا صَدَّقت الآذَانِ ، سَأكتَفِي بِمَا سَيَخطَهُ الحِبرُ المَكنون في لَحدِ قَلَمِي بِمَا جَاءَ في كَلامِ الله:

الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ . سورة النور ، 26

بِوجهٍ مُتأجِجٍ بِالنُّور ، و عُيونٍ اخضرَّ الكَونُ في جَوفِهِما ، و شَفَتَانِ تُوتِيتَانِ ، و خَدَّانِ مُخمَلِيتانِ ، و غِطاءٍ مُنصَهِرٍ بالبَياضِ ، و بِحنانِ الأمُومُة ، و بِيَدَينِ أنقَى من مَلامِسِ الحَرِير تَحمِلانِ الخُبزَ ، تَخرُجُ أُمّ عِصَام مِن المَطبَخ في عَجَلةٍ من أَمرِها ، و بِابتِسَامةٍ مَحمُومَة بِرَياحِينِ الرِضَى تَرمُق إلى فَلِذة كَبِدِها بِرأفَةٍ مَجبولة بِالرَحمَة ،

يُجِدُّ السَيرَ إليهَا مُسرِعاً ، كَأنَمَا مَطَرٌ مُتَرَاشِقٌ إنكَفأ على أرضٍ مُتصَحِّرة ، يُمسِكُ بِكَفِّهِ كَفَّها ، يَنحَنِي مُقَبِّلاً يَدَها طَالِباً الرِضَى ، يَحتَضِنُ عُنُقها مُتَسَلِّلاً إلى استِنشَاقِ رائِحتِها بِشَغَفٍ مُبرَم ، كَمَا هِي تَحتَضِنَهُ و تَضُمَّهُ بِحَفاوةٍ مُشبَّعة بحَنَانِ الأُمُومَة ، لتُخرِج مِن قَعرِ فُؤَادِها دَعَواتٍ ،

بِلَهجةٍ دِمَشقِيةٍ:

رَبّي يرضَى عَلِيك يا أُمي ،

يخلِّيلِي إيَاك تُشكُول آسي ،

و مَا يحرِمنِي مِنَك يا ضَو عِيُوني ،

رُوح يا عِصَام ،
الأرض تِنبَعلك ، و السَمَا تنزِلَك تؤبُر نَلِبِي يا مو ،
يُبَادِلُها تِلكَ الدَعَوات المُغَمَّسة بِالحَنَانِ قَائِلاً:
يخَليلنا إيَّاكِي يا تاج رَاسنا ،
و نَوَّارة العِيلة ،
و رَيحَانة الكُون ،
و مَا يحرِمنَي مِن طَلِتِك يا مو ،
يُطِلُّ أَبو عِصَام مِن غُرفَتهِ المُطِلَّة على فَنَاءِ البَيت ، بِمَهَابة تَرتَعِد لهَا فَرائِصُ القُلُوب ،و بِثَوبِهِ الأبيَضِ و عَبَاءَةٍ مُطَرَّزَةٍ بِالقَصَبِ ، و بِوجهٍ مُفعَمٍ بِالرَاحةِ ، و مُشرِقٍ بِالإيمَانِ ، و مَشرَئِبٍّ بِنَدى الصَبَاحِ ، و بِصدرٍ مُتَّسِعٍ بالنَقَاءِ ، و بِعِينِينِ أغدَقَتهُمَا الطَمأنِينَة ، يَتَكَفأُ بِهُدُءٍ مُقتَفِياً خُطَى الرَصانةِ ،
يُبَاغِتُ عِصَام هَيبَة وَالِدهُ ، ليَنحَنِي إجلَالاً لهُ ، مُقَبّلاً كَفّهُ
في كُلّ صَباحٍ يَرفَعُ أبَا عِصَام إلى الله دَعَواتهِ بِشموخٍ و اعتِزَازٍ لِصلاحِ ابنِه و تَربِيتِه البارّة ، مُستَغيثاً:
الله يرضَى عَلَيكَ يا عِصَام ، و نشُوفَك عَارِّيس يا بّي.
يُلجم الحَياء مَلامِحَ عِصَام ، و قَد أطرقَ رأسَهُ خَجَلاً ، رَادًّا بِأدَبٍ لِدَعَواتِ وَالِدهِ قَائِلاً:
الله يخَليلنا إيَّاك يا بي ، و يُطُولِنا بِعُمرَك ، و ما يحرِمنا مِنَك.

تَلتَفُّ العَائِلة حَولَ طَاوِلةِ الإفِطَار ، مِن بَعدِ أن يَجلِسَ رَبُّ البِيت في البِدَاية ، هُم كَحَبَّاتِ اللُؤلُؤِ المِصفُوفَة تَوهُّجًا ، لِتَتَعَثّر القُلوب بِبَرِيقِ صَفَائِهم ، و لِيُحِيطَهم الرِضَى بِرَوحَانيةٍ تَتَّقِدُ إيمَاناً ، فَهُم القُوم لا يَشقَىٰ جَلِيسُهم .

8

دِمشق عِشتُكِ رَيعَاناً و خَافِقَة
و لَمَةِ العيونِ السُودِ و الأرَقا
تَمُوجينَ ظِلالِ الذكرَياتِ هوى
و تُسعِدينَ الأسى و الهمّ و القَلقا

محمد مهدي الجواهِري

و كَان ،

عِصَام البِيطار ،

يَتَسرّبُ مِن تَحتِ شَرَاشِفَ مَلَامِحِهِ ، حَيَاءٌ أبهَى مِن شَمِيمِ الياسَمِينِ ، يَتَسَلَّلُ بِشَذاهُ مُتّجهَاً إلى جَامِعَةِ دِمشقَ ، كَمَا يَنسَلُّ الطُهرُ الفُوضَوي مِن عَقَاقِير المِسك الحَضرَمي ، مُباغِتاً كُلَّ رُوحٍ مُشرَّبة بِنَقاءِ الشَامِ ، السَاعَة 08: 40 ، ضُحىً ،

بِتَوقِيتِ مَن جَدَّ وجَد ، و مَن سَارَ على الدَّربِ وَصَل ، يَتَرجّلُ على تَأهُّبِهِ عابِراً دأب المُفلِحِين ، حَاملاً على كَتِفِهِ حَقِيبةً سَودَاء كَكِسَاءِ الكَعبةِ ، تَغفو في أحشَائِها كُتُبهُ الجَامِعية ، مُهَذَّبَة تِلكَ الخُطى المَجبُولَة بِالخَيرِ المُخَثّرِ ، دَمِثة تَلكَ الرُوح المُشبَعَة بِالإحسَانِ ، خَلُوقَة تِلكَ النَفس السَخيّة بِالعَطَاءِ ، يَتَّكِأُ على غُمُوضِ حُلمِهِ مُتَهَكِّماً ، مُتَجشِّمَاً بَينَ شَفَتَيهِ ابتِسَامة كَنَواةِ الحُبِّ ، و لا يَخلو دربَهُ مِن المَجَانين الذينَ يَجُوبُون بِكَرَاماتِهم أزقَّة دِمَشقَ العَتِيقة ، يَفترِشونَ تَعَاسَتَهم أعتَابَ الأضرحة و مَرَاتِع الأولِياءِ و قُبُور الصَالِحين ، يَلتَحِفُون قِبَاب آلِ بَيتِ رَسولِ الله و أقفَاص مَقَامَاتِ أهلِ الله ، رَفَع الله عَنهُم القَلَمَ لخُلوّ أدمغَتِهِم من وَعِي الإدرَاك ، يَتَبَّركُ الدِمَشقيون بِهِم ، مُلتَمِسين من أفوَاهِهِم دَعوة على طَبَقٍ من صِدقٍ ، يَطوف بِهم عِصَام مُجَدِّداً بَيعَة إلقَاءِ التَحِيّة على وجُوهِهِم الخَالِيةِ من المُرَاوِغةِ و النِفَاقِ ، يُسنِدُون أمَعائَهم و عُقُولهم ، على حَفنَةِ صَدَقة أو كِسرَةِ خُبزٍ أو نَظرَةِ رأفَة ،

و كَانَ عِصَام ،

بَينَهُ و بَينَ الحَاجِ :

أبُو فِراسٍ الجِنَانِي ،

أحَد أبناءِ صَاحِبِ مَطعَمِ الجِنَانِي ، الذَّائِعِ الصِيتِ بالوَجَبَاتِ الشَعبِيةِ ، مِيثَاقاً ، و عَقداً ، يَومِي:

بِأن يُهيّأ لَهُ كُلَّ نزوَةِ ضُحَى ثَلَاثِ وَجَبَاتٍ طَازَجَةٍ ،

فَكَانَ مَطعَمُ الجِنَانِّي يُطِلُّ بِوَاجِهَتِهِ عَلى دَوَّارِ بَابِ مُصلَّى ، فهَذا الَمَركِز هُوَ البوّابَةِ الرِئِيسِيةِ لِحَيِّ المِيدَان الدِمَشقِّي ، و يُعَدّ هَذا الحَيّ مِن أَهمِّ الأَحياءِ الدِمَشقِّيةِ ، الذَّائِع بِغَزَارَةِ العُلَمَاءِ مِن الفُقَهَاءِ و القُرَّاءِ و المُفسّرين و الثُّوَارِ ، مِن أمثالِ

العَلامَةِ الُمجَاهِد ؛ مُحَمَّد الأَشمر ، أحَدِ كِبارِ الثَّورة و النِّضالِ الوَطَني ،

و شَيخِ قُرّاءِ بِلادِ الشَّامِ : مُحَمَّد كريّم رَاجِح ،

و العَلّامَةِ المُحدِّث : عَبدِ القَادِرِ الأرنَاؤُوط ،

و العَلّامَةِ : حَسَن حَبَنَّكة الَميدَانِّي ،

و العَلّامَةِ : صَادِق حَبَنَّكة الَميدَانِّي ،

و العَلامَةِ شَيخ قُرَّاءِ بِلاد الشَّامِ : حُسَين خَطَّاب ،

و الفَقيهِ الدَكتُور : مِصطَفَى البُغَّا ،

و الفَقيهِ المَشهُورِ : مُحَمَّد شُقيّر ،

و الفَقيهِ المَشهُورِ : رُشدِي القَلَم ،

يَلِجُ عِصَام إلى مَطعَمِ الجِنَّانِي الذِي يَكتظُّ بِالدِمَشقيين و الزُّوَارِ و السَائِحِين ، هُنَاكَ عَلى شَفِيرِ الأعنَاقِ المُحتَدِمَةِ بِلَعقِ الأَوعِيةِ و التِهَامِ مَا احتَوَتهُ الأَطباق ، فلا رَائحَة تَعلو فَوقَ فَغوَةِ مِراسِ البَسَاطةِ و فِطرِيَّةِ الانسِجامِ ، و بَينَ أيقُونَةِ الفُوضى التِي يَطغى عَلِيها الدرَاما العَشوائيَّة ،

و لَن تُشفَى شَهِيّةُ مَسَامّعكَ مِن السَيفونِيّةِ المَشحونةِ بالضَوضَاءِ الصَاخِبَةِ ، التي تُحدِثُها قَرقَعَة المَلَاعِقِ و جَلجَلة الأطباقِ ، إنَها أُوبرة البسَاطة و مَعزوفة الطِيبةِ و لَحن الأمعَاء و الأفواهِ الخَاوية ،

و بِبَشَاشةٍ عَارِيةٍ تَجُوب عَينَي عِصَام بَينَ أكوَامِ الوَلائِمِ بَاحِثَاً عَن أبو فَرَاسٍ الجِنَّانِي ، لِيَجِدَهُ بَينَ أَنقَاضِ الطَاوِلاتِ جَاثيَ التَّعب ، و بِصُوتٍ مُتَهكِّمَاً عَابِراً لجَلجَلةِ الحُضُور ،

عِصَام :

صَبَاح الخَيرِ عَمّي أَبو فِرَاس..

أَبو فِرَاس:

يسعِدلي صَبَاحك يا عَمّي عِصَام ، يلّا لَّح أَعطِيك أَمَانّتَك عَمّي..

يُمسِكُ عِصَام الأكيَّاس بِكَفِّيهِ ، دَافِعَاً لَهُ الَمالِ ، لِينسَحِب بَينَ الطَّاوِلاتِ المُنتَفِضة ، مُشِيّعاً تَمرُّدِ الرُؤوسِ التي اجتَاحت فَضَاء المَطعَم ، و مُودِّعَاً الَحاجّ : أَبو فِرَاسٍ الجِنَّانِي...

يَمضِي بَينَ الطُرُقَاتِ القَدِيمَةِ مُتَوجِّهَاً إلى مَسجِدِ :

تِنّكز ،

في ضِيافَةِ ضَرِيحِ الإمِامِ العَادِلِ ، و الأمِيرِ الَمملُوكِي ، و نَائب السَلطَنة المَملُوكِية في دِمشَقَ:

سَيفِ الدِينِ تِنّكِز الأشّرَفي النَّاصِري ،

المتوفى 744 : ، هجري ،

حَيثُ يَطوِي أَحَدُ الَمَجانِين جُنُونَهُ على أعتَابِ المَقَامِ ،

يُقَالُ بِأنَّ هذا الرَجُل خَرَجَ مِن تَحتِ المُنفَرِدَاتِ ، التي يُسَاقُ إليها من تَفوَّهَ بِالحُرِّية و الكَرَامةِ ، في وطنٍ مُغتَصَبٍ تَحتَ قَبّضِة قَانُونِ الطَوَارئ مُنذُ أربَعَةِ عُقُودٍ من الظُلم ، بِصمتٍ دُوَلي و بِذرِيعةِ حِمايةِ الوَطنِ و بَعِيداً عَن هِشَاشَةِ مُنَظَّمَاتِ حُقُوقِ الإنسَانِ و شَرَائع الأديَانِ ، اغتَالوا خَلَايَاهُ الدِمَاغِية بِآلةِ التَصفِياتِ السِياسِيّةِ ، مُلقِينَ بِجُنُونِهِ في شَوارِع الوَطن المُشتعِل قَهرَاً ، و لِيكُون عِبرة للشُعُوبِ المُروّضَة على الخَشية مِن التَفوّه بالدِيمُقرَاطِيةِ ، لَم يَجد هذا المِسكِين لهُ مَأوى سِوى أن يَحِلَّ على ضَرِيح الأولِياءِ ضَيفَاً عَزِيزَاً ،

في جُنُونِ كُلِّ ضُحَى يأتِيهِ عِصَام عاقِدًا مع جُنُونِهِ ، ضَامَّاً صَدرَهُ ، لافَّاً تَعَاسَته ، فلا يَتَقزَّز مِن رَائِحَتِهِ ، و لا يَتَهرّبُ مِن حالَتِهِ الرَثّة ، و بِتَهلُّلٍ مَجبُولٍ بالنَقاء ، يُسلِّمَهُ وجبة الطَعَامِ ، مُقَبِّلاً رَأسَهُ ، مُودِّعاً جُنُونَهُ بِرِفقٍ..

يُكمِلُ مَسيرَهُ مُتَّجِهاً إلى :

التِّكِية السُلَيمانِية ،

و هو صَرحٌ عُثمانِيٌّ مُؤصّل بالعَرَاقةِ ،

أَمَرَ بِبِنَائِهِ السُلطَان : سُلِيمان القَانُونِي ،

في عَام 1554 : ، للمِيلاد ،

فَفِي بَاحَةِ الحَرَمِ السُلَيمَاني تَجثُمُ عَجُوزٌ مُسِنَّة بَعدَ أن أشقَاهَا الفَقرُ ، لِتَبلُغَ مِنَ العُمر 73 : عَامَاً ،

تَتَرَبّصُ بِالمارة و الزَائِرِين ، بَاسِطة بِضَاعَتِها ، عَارِضَة بَعضَاً مِن أَنوَاعِ السِكَاكِر و الفَاكِهَة الُمجَفَفَة ، حِفظاً لِكَرامَتها ، و مَانِعة كَفَّيهَا من التَسَوّل و مدِّ يدِ العُونِ مِن جُيوبِ الغُرُباءِ ،

و للأسَفِ الشَدِيد ، بَعد أن عَقَّهَا فَلِذة كَبِدِها ، و رَمَى بِكُهُولَتِها في مَهَبِ الطُرُقَاتِ التي تَرتَجفُ رُعبَاً و جَورَاً ، و هَاجَرَ إلى المَنفَى المُتَقِد غُمُوضَاً ، مُخَلِّفاً وَرِاءهُ أُمّاً غَزَا الشَيبُ ضَفَائرها ، و احدودِبَت الأجفَان على هَرَمِها ، و تَرهَّلت المَلامِح على كَمَدَها ، هَل نَسِي أو تَنَاسَى الفَضل الذِي صَبَّ من خَيرِ شَبَابِها صَبَّاً! ؟

أَيَةُ وَقَاحَة تلكَ التي تَجعَلُكَ لا تَفي بِدينِ الأمُومُة يا عَاقّ! ؟

فَكَانَت تَبتَهِج لرُؤيَا طَيفِ سَناهُ و هُوَ مُقبلٌ إليهَا ، تُبَاغِتُ مَقبلهُ بِابتِسامةٍ مُتَلألِئة بِالحَنَانِ ، تَشعُر مِن تَحَطُّب شِفَاهِهَا بِتَعَطُّشٍ لِتَقبيلِ مُهجَةِ فُؤادِها يُقَدمُ لهَا وَجبة الإفطَارِ ، مُرَمِماً أمعَاءٍ تَصَحَّرت مِن شَرَاسَةِ الجُوعِ ، يَتَدفَّقُ بَين طَيَّاتِ وَجهِها مَسَامَاتِ الانشِراحِ ، مَصحُوبة بِدُعَاءٍ دَمِثٍ كَاستِغَاثَاتِ الجدَاتِ ، تُرسِلُ قَرابِينها إلى الله ، بِأن يَحفَظَهُ و يُوفِقَهُ ،
يُوَدِعُ تِلكَ العَجُوز المِسكِينة بِقُبلةٍ تَارِكاً أثَرَها على جَبِينهَا ،
سَالِكاً الطَرِيق المُؤدي إلى البَرَامِكَة ،
و كَانَ هَذا الشَارِع مَقبرة لآلِ بَرمَك الُمنحَدِرين مِن سُلَالةٍ مَجوسِيّةٍ مِن أُصُولٍ بَلخِيّةٍ فَارِسِيّةٍ ، فَلَقد ادِعَوا الإسلَامَ في الخِلافَةِ العَبَاسِيةِ ، و تمَّ القَضَاءُ عَليهِم في عَهدِ الخَلِيفةِ :
هَارُونِ الرَشِيدِ ،
و بَنَى على جَثَامِينهم إسطَبلاً لِتَدُوسَهُم حَوَافِر الأنعَامِ ، و لِيكونُوا عِبرة للتَّارِيخ و لِكُلِ مَن أرَاد التَطَاوِلَ على بِلادِ الشَامِ و حِصنِها ، و لِيُبصِرَ أعدَاء دِمَشقَ فَجَائع الحَمقى جُثَث الخَوَنة ،
على صَخَبِ ذَلِكَ الشَارِع العَارِمِ و دوي طُلَابِ الجَامِعَات و مُوظَّفِي القِطَاعَاتِ الحُكُومِيَّة و الخَاصَّةِ ، يَجثُو أحَد الفِتيةِ بَعدَ أن قَطَعَ من عُمر طُفُولَتِهِ : خَمسَة عَشَر عَاماً .

يَبِيعُ الخُبزَ ليَسُدَّ رَمَقَ إخوَانه الأيتام الذينَ يَصغُرُونَهُ يُتماً ،
فَبَعدَ أن رَحَلَ وَالِدهُم إلى الدَارِ الآخِرَةِ بِسَبَبِ سَكتةٍ قَلبِيةٍ ، لِتُسكِتَ مَسِيرة أطفَالٍ ، رَمَى بِهِم اليُتمُ على الأَرصِفَةِ ، ليَكُونُوا ضَحِية للقَهرِ و الفَقر و القَدَر ،
يَقِفُ الفَتَى مُصَافِحَاً كَفَّهُ كَفَّ عِصَام ، و لِبَرِيقِ عَينَيهَ الُمرتَجِفَتَينِ بالبَرَاءَة ، لَمعانِ يُتمٍ يَنتَحِب لهُمِا الكُونُ بِأكمَله ،
يُسدِي لَهُ بِوَجبةِ الإفطَارِ ، مُربتاً كَفَّهُ على كَتِفِ الفَتى ، مُبتَسِماً لِعِزَّةِ نَفسِهِ ، و لِشَجَاعَتِهِ التي جَعَلَتَهُ رَجُلاً قَبِل أن يَكُونَ رَجُلا ، فَهُنَاكَ رِجَالٌ قَطَعَ العُمرُ بِهِم أشواطاً ما بَعد الأربَعِين ، و لَكِنَّ إدِرَاكَهُم لَم يَبلُغ الحُلم ، و هُنَاكَ فِتيَةٌ لم يَعبُروا مِنَ العُمرِ سِوى الضَنكِ و الشَقاءِ ، لِيبلُغوا جِسرَ إدرِاكِهِم مَا لم يَصِل إلِيهِ أشباهُ الأربَعِين .
يُفَارِقُ عِصَام الفَتَى بِعَينَين أجهَشَهُما الدَمع ، لِجَهَامَةِ السِينَاريوهَاتِ اليَومِية التي يَعبُر مَآسِيهَا..

9

دِمَشق أصالة في مُقلَتيها
حَديثٌ لا يصورُهُ الكلامُ
تظلُّ دِمشقَ نِبراسِ المَعالي
و إن طال السُرى و جَفا المَنامُ
تَهُبُ رياحها شرقاً و غرباً
بما يُرضي القومِ الكِرامُ

عَبدِ الرَحمَن العَشمَاوي

و كَانَ ،

عِصَام البِيطَار ،

يُبَاغِتُ حَرَمَ جَامِعةِ دِمَشقَ ،

بِدَهاءٍ مُتَوَرِطٍ بِعِشقِ اللُغَةِ العَرِبيةِ ،

لقَد استَحضَرتُ عِنفوان ذَاكِرَتِي ، عِنَدَمَا حَصَلَ عِصَام على دَرَجةٍ عَالِيةٍ في التَوجِيهِي ، التي تُمَكِنهُ مِن دُخُولِ كُلِيةِ الطِبِ بِجَدَارةٍ و فَخرٍ، و لكِنّ عِشقَ اللُغَةِ العَرَبِيةِ إذا انسَلَّ عِطرُها إلى أَورِدَةِ المُهَجِ سَهواً ، فِاعلَم بِأنَها تَغتَالُ كُلَّ لَكُوناتِ اللُغَاتِ ،

لِيتَّخِذَ قَرَاراً غَير قَابِلٍ للطَعنِ ، بِأن يَنتَسِبَ إلى كُلِيةِ الآدَابِ ، لِوَلَعِهِ بِرِقَّةِ اللُغَةِ العَرَبِيَّةِ ، و بسَالةٍ تَكمُنُ بَينِ سَتَائِرِ النَفسِ المِثَالِية ، و حُريَّةٍ خَالِصة مُتخَلِّصة مُتحرِّرَة مِن قُيُودِ الطَبَقَاتِ التي تَلهَثُ بِتَكَبُّرِها خَلفَ التَخَايُلِ و التَجَبُّرِ على الخَلقِ ،

و لِأنَّ الحُرِية هِبةٌ شَاسِعَةُ الصَدَى ، فَإنَّ الله يَقذِفُهَا في الإرَادَاتِ التي تَرتَقي بِطُمُوحِها و مُستَقبَلِها و أهدَافِها ، تِلكَ الهِمَم التي تَأبى أن تَنحَدِر إلى مُنزَلقَاتِ التَخلُّفِ و الانحِطاطِ و الرَجعِيةِ ، فَالمُتَقَلِّبون لا تَقُومُ لهُم قَائمة ، تَجِدَهُم في مزَابِلِ الغَبَاءِ يُتَاجِرُونَ بِمَبَادِئِهِم و شَرَفِهِم من بَعدِ أن أضَلَّهُم الضَّياع ،

إلى أُولئِكَ الثَرثَارُين و المُتَشَدِقُين و مُضِيعي أوقَاتِهِم و أوقَاتِ غَيرِهِم أقولُ لهُم :

فإن ضَياعِ البِدَاياتِ ، نَدَمٌ و خَسَارةٌ للنِهَاياتِ ..

لَقَد كَانت النَصائِح فِيمَا مَضى تُقَايَضُ بالبَعِير..

و اليَوم ، تُهدى المُواعِظ على سَنَمٍ من زَبرجَد ، و لِكِن تَأبى الخِرَافُ إلا أن تَكُونَ خِرَافاً..

إنَّ الجَهلَ وَبَاءٌ كَالسُمُومِ المُتَهالِكة ، أينما تَفشّت في قُومٍ إلا و أهلَكتهُم ، و مَرَغَت جِبَاهَهُم بِوَحلِ الانكِسَارَاتِ و الهَزائم ، و كلَّ يومٍ نَتَصفَّحُ فَجَائِعَ الفَاشِلينَ عَبرَ عَنَاوينٍ جَاهِزةٍ لأن نَشمَتَ بِهِم ، لِمَن كَان لهُ ضَمير ، و استَمعَ القُولَ و هوَ شَهِيد ،

أكتُب:

العُمرُ يَمضي ، و السِنينُ تعبُرُنا ، و الأيّامُ تَلتَهِمُ صِبَانَا ، إلى من لم يَفُتهُ قِطَارُ الدَهرِ ، أقولُ لَهُ : اغتَنِم وقُوفَكَ أمَامَ أوَلِ مُوقِفٍ مِن مَحَطَاتِ المُستَقبلِ ، و اجعَلِ من دَاستهُم الدُنيا عِبرةً للمُضيّ إلى مَرَاقي النُجُوم ، و لا تَلتَفِت إلى النَائِمين ..

السَاعَة 30 : 09 ،

صَبَاحاً بِتوقيتِ أَروِقَةِ الجَامِعَات ،

بِشَكَاسَةِ النَشَاطِ ، بِلَهِيبِ الجُمُوحِ ، بِاحتِدامِ الإرَادَةِ ،

بِاتِقَادِ الجَدِّ ، بِتَأجُجِ العَطَاءِ ، بِتَوَهجِ الأدَبِ ، بِاضطِرامِ الفِطنَة ،

بِلظَى أوَلِ مُحَاضَرةٍ في هذا الصَبَاح الدِمَشقي ، يأخُذُ عِصَام مَوقِعَهُ تَحتَ قُبَّةِ المُحَاضَرات ، سَاعِياً لِالتِهامِ أصنافِ العِلمِ بِكَافّةِ مَذَاقَاتِهِ :

كالنَحوِ ، و الصَرفِ ، و البَلاغَةِ ، و العَرُوضِ ، و مُوسِيقى الشِعرِ ، و تَارِيخِ الأدبِ ، و عِلمِ البَيانِ و البَدِيعِ ، و مَبَادِئِ النَقدِ الأدَبي ، و فِقهِ اللُغَةِ ، و النَثرِ العَرَبي الحَديثِ ، و عُلُومِ اللُغَةِ اللِسَانِيةِ ، و الدِرَاسَاتِ الأدَبِيةِ في القُرآنِ و الحَدِيثِ ،

فَلَقَد كَانَت كُلُّ أنظَار الأسَاتِذةِ و الطَلَبَةِ تَزحَفُ إلى يَابِسةِ ذَكَائِهِ ، و تَتَحرشُ بِهِ العُيونُ بِشَرَاهةٍ ، و تَسعَى الأذهَان لأن تُفَكِكَ شِيفَرةَ نُبوغَتِهِ و حَصَافَتِهِ ،

و لكَنّ أخفَقُوا مِن تَسوِيغِ نَبشِ نَبَاهَتِهِ ،

فَعِندَمَا يُنجِزُ تَقرِيراً أدَبِياً ، و يُدلِي بِمَضمُونِهِ على مَسَامِعِ المُتَشَرِدِقِينَ بإعجَازِ الأدَب ، كانَ يجتَاحُنِي شُعُوراً عَابِراً للدَهشَةِ ، يَستُوطِنُ الذّاكِرة لِأقِفَ مَذّهُولاً إلى هَذِهِ اللحظَةِ.. !

على رُخَامِ الوَرَقِ ، و لُيُونَةِ الحَبرِ ، يُثِيرُ خَفَايا غَيَّبَتها فِطنَةُ الكُتَّابِ و حِنكَةُ النُقَّادِ ، يَجذبُ بِدَهَالِيزِها إلى مُصاغِ العِبارَاتِ المُربَكَةِ ، يَجتازُ مَعَارِكَ كَلِمَاتِها المُحتَدِمَةِ ، يَرسُو بأحرُفِها على يابِسَةِ الإعجَازِ ، يُشعِلُ فِتنَةَ إنشَائِها خِطَاباً مُضرماً يُؤجِّجُ كُلَّ من أصغَى إليهِ ، يُلقِي بِبَعثَرَتِها البلاغِيةِ قِيَمَاً سَرمَدِية على بَلَاطِ الجَامِعَةِ ، يَحثُو بفَصَاحَتِها في مَن أنصَفَهُ تِبرَ البَيانِ ، يَدفُنُهَا بِعَنَاوِينٍ أزَلِيةٍ تَجعَلُ الحَكِيمَ حَيرَاناً ،

و لِكُونِي خِلٌّ مُقرَّبٌ لَهُ ،أعتَرِفُ أمَامَ الأدَبِ ،بِأنَّهُ مَبعَثُ فَخرٍ أعتَزُّ بِخِلَتِهِ ، لَقَد لازَمتُ رِفقَتَهُ من المَرحَلةِ الابتِدَائِيةِ ، إلى أن طَوَى بِنَا الزَمَنُ تَحتَ غَبراءِ الجَامِعات ،

و سَلوا الصُفُوفَ التي كُنَّا فِيها ، و العُمرَ الذي أقبَلَنَا بِهِ ، و إنَّا لصَادِقُونَ..

فَكَان الطَلَبَة يلتَفُّونَ حَولَهُ بَينَ كُلِ مُحَاضَرةٍ و أُختِها ، طَائِفِينَ بِرُكن حِكمَتِهِ ، مُتَجَوّلِين في مَدِينَةِ تَمَرُسِهِ ، مُتَمَسّكِين بِأقفَاصِ حَذاقَتِهِ ، مُتَشبّثِين بِستَائِرِ فِكرِهِ ،

لقَد كَانَت فَرَاستي تُنبّئُني ، بِأنَّ هَذا البَدرَ الياسَمِينِّي سَيَكُونُ لهُ شَأنٌ شَذي ، تَرتَقي بنَسَمَاتِهِ إلى النُجُومِ اللامِعَاتِ .

لقَد ، دَعَاني الفُضُولُ ، أن أسألَهُ بِتَطفُّلٍ:

أنتَ تَدرُسُ الأدَب العَرَبِي ،

و لِكن إلى أين أنتَ ذَاهِبٌ ، و إلى أين مُبتغاكَ! ؟..

أجابني بِحِيادٍ مُتَكَهِّنٍ ، و ثِقَةٍ بِالنَفسِ..

إلى نُوبِل لِلأدَبِ العَالَمِي...

لقَد دَاهَمَنِي بِإجَابةٍ مِن العِيارِ الثَقِيلِ ، لِما يَحمِلُ مِن عَزِيمةٍ تُجرُّ لِهِمَّتِها السُحُب ، و لقَد جَعَلَنِي أُمعِنُ في هذا الكُونِ الدَّامسِ بالإحباطِ و التَرَدّي الحَضَاري و الأخلَاقي ،

هَل يُعقَلُ أن يَخرُج من هَذهِ المَزابِل المُختَنِقة بِفَشلِ البَشرِ ، ياسَمِينة على شَاكِلةِ فَتى يُقَالُ لهُ : عِصَام البِيطَار! .. ؟

كَمَا أنَّ الله ، خَصَّ لليَاسَمِينِ عَاصِمة تَغفُو على أسوَارِها بِعَفويةٍ ، كَذلِكَ يَصطَفي مِنَ البَشر ثِقَاتٍ ثِقَالٍ ، لِيصنَعوا مِن الوَرقِ مُعجِزة تُذهِلُ العُقُول..

10

يا شامُ صَبْراً و شَأنُ الحُرِّ يَصطبِرُ
قد أشرقَ النَّصرُ و ازدَانَت بِه النُّذُرُ
و النَّصرُ صبرُ سُويعاتٍ فلا تَهُنِي
و الحُورُ ترقُبُ و الفِردَوسُ تنتَظِرُ

عَبد الله العَفَانِي

و كَانَ ،

عِصام البَيطَار ،

يَتَفَادَى إضَاعَةَ الوَقتِ ،

و يُردي بِالثَوَاني صَرِيعَةً تَحتَ نِصَالِ جأشِهِ ،

و يُفنِي دَقَائِقَهُ بِسَخَاءٍ مُفرطٍ لِلعِلمِ و بِثَبَاتٍ مُبرِمٍ ،

و يُبَدِّدُ السَاعَات على تَجَشُّمِ جِمَاحِ طُمُوحِهِ ، و يَتَجَرَّعُ العِلمَ بِنَهَمٍ ، كَمَا يَحتَسي قَهوَتَهُ على تَؤُدة ،

السَاعَة 01: 30 ،

بِتَوقِيتِ ارتِواءِ وَاحةِ العِلمِ ،

حَيثُ يُسبِغُ عِصَام سِجِلَّ إدرَاكِهِ ، مُنصَرِفَاً مِن الجَامِعَةِ ، مِن بَعدِ مَعمَعةٍ اسِتَمَرّت خَمسَة سَاعَاتٍ ، جَاثِياً على صَمتِهِ ، مُطرِقاً على هُدُوئِهِ لِهيبَةِ الأدَبِ ، مُلتَقِمَاً فِتَمِينَاتٍ مِن أصنَافِ الفُنُونِ العَرَبِيةِ ، كَمَا تَلتَهِمَ النَّارُ الحَطب ،

يَتَحَاشَى جُمُوحَ اللَهوِ مُبَاغِتَاً تَلابِيبِ السُقُوطِ في مُنزَلقَاتِ الفَاشِلِين ، يَهوَى السُمُوَّ بِرَغَبَاتِهِ الزَاخِرةِ بِالأُمنِياتِ إلى التَضلُع و التَمَيُّز، فَتَجِدَهُ مَهووساً لأن يَكتِشِفَ غُمُوضَ الحَقَائِقَ ، الآفِلةِ عَن الفَهمِ ، يَتَوَجَّسُ على جَاذبِيّةِ نَبَاهَتِهِ ، لبَعثَرةِ صَخَبِ العِبَاراتِ ، مُربكاً مِن سِحرِ نَوَاتها ، التي يَطوفُ حَولَ كَعبَتِها حَجِيجَ العِلمِ.

يُلقِي بِأعتَابِ الجَامِعَةِ رَامِياً بِها خَلفَ ظَهرِهِ ، حَامِلاً في لُبِّهِ شَهيّةِ طَالِبِ العِلم ، مُخَلِّفاً وراءهُ جَهلاً يَجعَلُ الوِلدانَ شِيباً.

على جَحِيمِ الشَوارِعِ المُخَثَّرةِ بِالزِحَامِ ، و مَع انصِرافِ المُوظَّفِينَ و العَامِلِينَ و طَلَبَةِ الجَامِعَاتِ ، تَغُصُّ الطُرقَات بِوَسَائِلِ النَّقلِ ، و تُصَابُ الأرصِفَةُ بِوَعكَةِ فَوضى عَارِمة ، لا تَشفِي زَعزَعَتَها إلا تَوَاري المارّة من لَهِيبِ الشَمسِ.

يتَّجِهُ عِصَام إلى حيّ : الحَلبُونِي الدِمَشّقي ،

أنَّهُ أحَدُ أحيَاءِ دِمَشقَ ، الذِي يُشتَهَرُ بِحَيّ المَكتَبَاتِ ، فَلَقد خَطَّ التَاريخُ ، بُطولاتِ أهلِهِ الصَنَادِيد ، حَيثُ أنَهُم أسهَموا في دَحرِ الانتِدابِ الفَرَنسي بِبَسَالةٍ ،

فَقد نُسِبَ اسِمُ هَذا الحَيّ إلى قَصرٍ و مَسجِدٍ :

حَسَن بَاشَا الحَلبُونِي الظَّاهِر .

فَمِن أَهَمّ مَعَالِمِ هَذا الحَيّ ، قَصرُ أوَّلِ رَئيسٍ للجمهُورِية العَرَبِيَةِ السُورِيّةِ ، الشَيخ:

تَاجِ الدِّينِ بنِ الُمحدِّثِ الأكبَر مُحمَّدٍ بَدرِ الدِينِ الحَسَنيّ ، عَام 1941 : ، 1943 مِيلادِي ،

يَمكُثُ عِصَام مُتَجَرّداً مِن ظِلِهِ تحَتَ سِهَامِ الشَمسِ ، مُجتَازاً بِقَدَمَيهِ أزقَّةَ الحَيّ ، الذي يُغِيرُ عَلِيهِ العُلَمَاءُ و الأُدَبَاءُ و الُمفَكِّرونَ و البَاحِثونَ من كُلِّ المَحَاوِر ، لِيَجتَاحُوا المَكَاتِبَ و دُورَ النَّشر بِشَرَهٍ مُدقِعٍ ، و لِتَحتَكِرَ

الكُتُب المُتَطفِّلة حَرَمَ الأرصِفَةِ و الجُدرَانِ ، و لِتَحجُبَ عَنَاوين الأغلِفَةِ بِكَافَّةِ الفُنُونِ الأدَبيَّةِ و الثَّقَافِيَّة .

فَلَقد كَانَ يَنتَعِلُ الأروِقَةَ ، مُتَفَحِّصاً دُورَ النَّشرِ بِحَذاقَةٍ ،

و مِن اهَمّ الَمكَاتِبِ التي يَرتَادُهَا بِشَكلٍ يَومي :

دَارالقَلَمِ ، دَارابنِ حَجَرٍ ، دَارِ كِيوَانٍ ،

دَارعِمرَانٍ ، دَارالحَافِظِ ، دَارالعِلمِ الحَدِيثِ ،

دَارِ الرَشِيدِ ، مَكتَبَةِ ابنِ القَيمِ ، دَارالرُوادِ ،

دَارِ ابنِ كَثِيرٍ ، دَارِ التَقوى ، دَارالخَيرِ ،

فَلَقَد كَانَ يُحكِمُ بُوصلةَ عَينَاهُ مُستَقصِياً العَنَاوين الأدَبيَّةِ ما تَحتَ الأشِعَّةِ البَنَفسَجيّةِ ،

يَلتَقِفُها بِحرصٍ و لكَأنَّهَا مِنَ النَوَادِرِ النَفِيسة ، و تَتَوَرّط الرُفُوف بالمُجَلَّداتِ السَمِجةِ ، و لتَرفُشَها أسمَاءٌ عَابِرة لوَاجِهَاتِ الأغلِفَةِ الثَّخِينةِ ، لِتَتَمَدّدُ عَناوِينٌ شَاحِبة ، قَد أرعَبَهَا رُقُودُها المُتَلكِّئ ، هُنَاكَ بَينَ صَخَبِ الأعنَاقِ اللاهِثَةِ على ضَالّتِهَا ، يَسِيلُ لُعَابُ البَاحِثِين و المُنَقِبِين على الحَوَاشِي و الفَهَارِسَ و المَعَاجِمَ الوَرَقِيةِ ، يَتَجَسَّسَون بِتَكَهُّنٍ مُختَرِقين كُلَّ غِلَافٍ يَعبُرونَهُ ، و بَينَ الفُوضَى العَارِمةِ يَشهَدُ بَلَاطُ المَكتَبَاتِ مَلحَمةٍ في سَبِيلِ البَحثِ و النّبشِ عن كُلِ ما هُوَ حَدِيث ، ليَتَساقَط فُقَرَاءُ الأدَبِ و العِلمِ ضَحَايا تَحتَ صَقِيعِ الأسعَارِ و زَمهَرِيرِ دُورِ النَّشرِ .

لقَد كَانَ عِصَام يَقتَنِي كُلَ رِوَايةٍ انكَسَرت شَهِيَّتَها بَينَ كَفّيهِ ، طَارِحاً بِها في رُفُوفِ مَكتَبَتِهِ المَنزِلِيّةِ ،

و بَعدَ أن يُلملِم شَتَاتَ خَطَوَاتِهِ ، يُشّيعُ الفَاجِعةِ التي تُأرجِحُ مَمَرَاتِ الحَلبُوني بالمُتَفَحّصِين و المُنقّبين عن الكُتُبِ ، رَامِياً خَلفَ عَاتِقِهِ:

ظَاهِرة بُولوجِيّة ثَقَافيّة تَرتَعِشُ تَضَارِيسَها بِمُؤشّرَاتٍ على شَاكِلةِ كِتَاب..

في الَساعَةِ 30 : 02 ،

تَسعَى إيقَاعَاتُ خَفَقَاتِهِ ، مُكِبّاً على تَجَشُّمِهِ ، إلى المَكتَبَةِ:

الظَّاهِرِيةِ ، التي أَسَّسَها :

الظّاهِر بَيبرس ، في عَامِ 676 : ، هِجرِي ، التي تَقَع ضِمنَ الَمدرَسةِ الظّاهِرِيةِ الكَائِنَةِ في بَابِ البَرِيدِ ، خَلفَ مَسجِدِ بَنِي أُمَيَّةِ الكَبِيرِ ،لَقَد كَانَت تَحتوِي على نَفَائِسِ الكُتُبِ و الَمخطُوطَاتِ الكُبرى التي تَمَّ نَقلُهَا إلى مَكتَبَةِ الأسدِ ،

و للتَّارِيخِ بَيانِ على شَاكِلَةِ لِسَان:

يَشهدُ على رَجُلٍ قَدَّمَ حَيَاتَهُ على طَبقٍ مِن مَشَّقةٍ ، في سَبِيلِ عِلمِ الحَدِيثِ النَبوي الشَّرِيفِ ، إنَهُ العَلّامَة المُحَدِيث:

مُحَمَد نَاصِر الدِينِ الألبانِي ،

أَحَدِ مُحَدّثِينَ الأُمَةِ الإسلامِيةِ و عُلَمَاءِ دِمَشقَ الكِبارِ .

الذي قَامَ بِفَهرَسَةِ الَمكتَبَةِ و قِرَاءَةِ كُلِ مَا تَحمِلَهُ مِن ذخَائِر عِلميّة،

و يَذكُر الألبانِي في كِتَابِهِ:

فَهرَسَةِ مَخطُوطَاتِ الَمكتَبَةِ الظَاهِرِيةِ ،

أنّ مَا دَعَاهُ إلى ذَلِكَ البحثِ ، بأنّه كَانَ يُفَتِّشُ عن وَرَقَةٍ ضَائِعَةٍ مِن مَخطُوطٍ لِكِتَابِ:

ذمِّ المَلَامِ ،

لِلحَافِظِ ابِن أبي الدُّنيا ،

فَكَانَ عِصَام قَد أبرمَ صَفقَةَ صَفَا يَومِيَّة يَختَلي بِهَا مَع ذَاتِهِ ، يُرَاجِعُ بِهَا المُحَاضَرَاتِ الجَامِعِّةِ التي تَلَقَاهَا ،

كَمَا أنَّ حَرَمَ الظَّاهِرِيّةِ ، يخلُدُ في وَسَطِهَا بُحَيرة تَسحَرُ الأنظارِ ، و تَدعُو مَن تَحولقَ حَولَهَا للتَأمُّلِ و التَّدبُّرِ بِمَهَابةٍ و وَقَارٍ..

11

شَام أهلوكِ أحبَابي و مَوعِدُنا
أواخِرَ الصيفِ آنَّ الكَرَمُ يعتَصِرُ
أواخِرَ النَغَماتِ البيضِ نرشِفُها
يومَ الأمَاسي لا خمرٌ و لا سَهَرُ

سَعِيد عَقِل

و كَانَ ،

عِصَام البَيطَار ،

تَجتَازُهُ القُلُوب بِلَذَةٍ ،

تَستُوطِنَهُ الأرواحُ بِشَغَفٍ ،

تَتَوغَلَهُ الأنظَارِ بِرِفقٍ ، فَكَانَ جَليساً للأمعَاءِ السَاغِبةِ الغَارِقَةِ في بُطُونِ المَسَاكِينِ ، و مُؤنِساً لِلمُتَسَكِعِينَ الذينَ يَجُوبُونَ بِجُنُونِهِم ثَرَى اليَاسَمين ، و كُلَ هَمِهِ أن يُخِيطَ الثُقُوبَ المَخمَّصَة التي تَدُورُ رَحَاهَا في جَوفِ كُلِ فَقِيرٍ ، جَبَلَهُ الخَالِقُ على الإحسَانِ و استنفَاذِ حَمُولَةِ الإفضَالِ مِن مَكَامِنِ طُهرِهِ ، فَكَانَ يَحتَطِبُ مِن جُودِهِ سَخَاءً مُثقَلاً بِالكَرمِ ، يحمِلُ بإحسَانِهِ المَصقُولِ بالعَطاءِ إلى أفوَاهِ الضُعَفَاءِ ، يُشعِلُ تَحتَ قُدُورِ الإغدَاقِ لَهِيبِ الإنفَاقِ ، سَادّاً لِثَامِ الضَوَرِ في فَمِ كُلِّ مَحرُوم.

فَكَانَ يَنتَزِع الوَقتَ اختِلَاسَاً ، ليَجُوبَ الأرصِفَةِ بَحثَاً عَن بَقَايَا وجُوهٍ أغَارَ على مَلَامِحِهَا جَفَاف التَعَاسَةِ ، تِلكَ الشِفَاه الصَدِئَةِ مِن قِلةِ الزَادِ و نَقصٍ طَفِيفٍ مِنَ الكَرامَةِ تَشكُوا إلى الله عُسرَ حَالِهَا .

فَفِي زَمَنِنَا المُتَلَاطِم بِأموَاجِ المَادِيَاتِ و المَصَالح الشَخصِيةِ ، تَرتَطِمُ كَثِيراً مِنَ الأقنِعَةِ لِتَنكَشِفَ عَورَاتُ أولادِ الحَرَامِ ، وَحدَها نَتَائَةِ الأموالِ المَنهُوبةِ ، كَفِيلَة بِأن تَفضَح لُصُوصَها ، و أن تُزَعزِعَ الرُعبَ في أبراجِهِم ، أنَهُم ليَسَ لُصوص كَرامةٍ و حَسبٍ ، بَل إنَهُم لُصُوصِ وَطن ..

على شَفِيري الذاكِرةِ ،
أقِفُ بِقَلَمِي أمَام إيّوَانِ السَاعَةِ 30 :04 ،
بتوقيت أوَجِ الإرهَاقِ ،
بِهامَّةِ تَشّردُقِ التَعَبِ ،
بِإعيَاءِ إرَبِّ الجُوعِ ، يَنسلُّ عِصَام مِن فَنَاءِ الَمكتَبَةِ الظَّاهِرِيةِ ، مُتَّجِهاً إلى مَنزِلِهِ ، مِن بَعدِ أن نَهَلَ مِن عَقَاقِيرِ المَعرِفَةِ ، تَكِدُّ بِهِ شَهِيةِ قَدَمَاهُ لِزِيارَةِ مَقَامِ السَيّدة :
رُقَيَّةٍ بِنّتِ الحُسَينِ بنِ عَلِي ،
الذي يَقَعُ في حَيّ العَمَارَةِ ، على بُعدِ مِئَةِ مِترٍ ، خَلف المَسجِدِ الأمَوي جَانِبَ بَابِ الفَرَادِيسِ ، و على أعتابِ البَوابَةِ الرَئيسِيةِ تُزحَفُ حُشُودِ الوَافِدِين مِن كُلِ أصقَاعِ الإيمَانِ ، فَقد بُنيَ المِقَام على طِرازِ الهَنّدَسَةِ الفَارِسِيةِ ، مُصَفَّحة جُدرَانَهُ و أبوابَهُ و نَوافِذهُ بِوَرَقِ الذّهَبِ و فَصْمِ الفُسِيفسَاءِ ، تَعلو شُمُوخَهُ قُبَّةٍ مُضَلعَةٍ ، مِن بَعدِ أن تَسَلّقت عَلِيهَا الزَخَارِفُ المرقُوشَةِ بالآيَاتِ القُرآنِيّةِ ،
رَبَّاهُ ،
مَا أَبهَاهُ مِن فَنَاء ،
على مَشَارِفِهِ تُستَمطَرُ فِيوضَاتٌ رَوحَانيّةٌ تَروي الوَجدَ حتى تُغرِقَ مَكَامِنهُ ، يَقِفُ عِصَام كَكُلِ يَومٍ مُدَشّنَاً تِلكَ النَفَحَاتِ الإيمَانِيةِ بالدُعَاءِ و

بمَجَامِعِ الأورَادِ ، خَاتِمَاً جَولَتَهُ قبل إيابِهِ إلى مَنزِلِهِ ، بِأرِيجٍ رَبَّانيٍ مُتَجرِدةٍ من دَسِائِسِ الذّاتِ ، كَمَا كَانَ يَذكُرُ لي..

يَنسَحِبُ مِن حَرَمِ السَيّدَة : رُقَيَّة ،

نَائِياً في خَفَايا نَفسِهِ لِواءً مَكسُواً بالمَهَابَةِ ، حَافِراً على جُدرَانِ الذَاكِرَةِ مَقَامَاً يَعبَرُ دَربَ قَلبِهِ كُلّ يَومٍ بِسُكُونٍ ، شَاقاً بِسَكِينَتِهِ حُظُوظِ النَفسِ و نَزَعَاتِ الهَوى ، نَاهِجَاً بِذُلِهِ وَهَجَ الأزِقَةِ المُتَشَرِدِقةِ بِمَقَامَاتِ أهلِ الله ،

طُوبَى للأحجَارِ التي تَفتَرِشُ المَتَاهَاتِ الدِمَشّقِيةِ ،

طَوبَى للسَوارِي المُتَشَابِكةِ تَحت قَبضِةِ السَمَاءِ ،

طُوبَى لِمن اختَارَهُ الرَبُّ لِيمشِي على نَدى دِفئِهَا اليَاسَمِينِ ،

فَبَعدَ أن يُوارِبَ عِصَام مَشَارِفَ بَيتِهِ ، مُؤصِداً رَمَقَ عَينَاهُ بِرؤيَةِ أبَوِيهِ ، سَادَّاً شَرَهِ فُؤَادِهِ بِدَعوَةٍ صَالِحةٍ مِن فَمِ أُمِهِ الشَفُوقَةِ ، رَاوِيَاً ظَمأ شَفَتَيهِ بِقُبلَةٍ على يَدِ والِدِهِ صَاحِبِ المَهَابةِ المُحَصَّنَةِ بالوَقارِ ،

يُجَالِسُهُم على وَلِيمَةِ الغَداءِ ، تَعرِفُ في مَلامِحِهِم الغَضَارةَ و الرَخَاء إنَها أُسرَةٌ سَلَطَ اللهُ عَلَيهِم نِعمَةَ الرَغَدِ و اليُسرِ ، و نِعمَ الأُسرَة هِيَ..

و بَعَدَ أن أسكَتَ فَداحَةَ الجُوعِ و ارتَوَت العُرُوقُ و ابتَلَتِ الأُوردة ، يَتَهَيأ عِصَام لِحَمِلِ طَعَامِ الغَدَاءِ إلى امرَأةٍ كَدَّهَا العُمرُ إلى أن وَصَلَ بِها على أدرَاجِ الثَمَانِينَ سَنةٍ ،

فَبَعدَ تَنَاوِلِ طَعَامِ الغَدَاءِ يَتَّجِهُ إلى :

باب تُومَا ،

الذي يَتَرَبَّعُ في الجِهَةِ الشَمَالِيةِ الشَرقِيةِ لَمدِينَةِ دِمَشقَ القَدِيمةِ ، فَلقَد سُمِّيَ بِهَذا الاسمِ نِسبَةً للقِدِّيسِ : تُومَا ،

أحَدِ رُسُلِ الَمسِيحِ الإثنَي عَشَرَ ، حَيثُ كانَت دِمَشقَ مَقصِداً للرُسُلِ و القِدِّيسِينَ عَبرَ التَّارِيخِ ، و تَمَّ بِنَاء هذا البَابِ في العَهدِ الرُومَانِي ، و أُعِيدَ بِنَاؤهُ في عِصرِ الَملِكِ :

النَاصِرِ دَاود ، عَامِ 1228 : ، للمِيلادِ ،

و يُنسَب بَاب : تُومَا ، كَمَا أَورَدَ : ابنِ عَسَاكِرَ ،

إلى كَوكَبِ الزُّهرَةِ ، حُيثُ كانَت أبوابُ دِمَشقَ تَعتَلي كُلَ قَنطَرةٍ كَمُجَسَّمٍ لِكُوكَبٍ مَا ، و يُسَمّى بِاسمِهِ ،

و قَد رَوَى التَارِيخُ بِأنَّ الصَحَابِي:

عَمرُو بِنَ العَاصِ ،

نَزَلَ بِهِ يَومَ الفَتحِ الإسلامِي لمَدِينَةِ دِمَشقَ ،

و كَانَ في ذَلِكَ الحَيّ كَنِيسَة مِن أهَمّ الكَنَائِسِ تُدعَى : الكَاتِدرَائِيةِ المريَميَّةِ ،

للطَائِفَةِ الرُومَانِ الأرّثَوذُكس ، كَمَا أنَّهُ مَقَرٌّ لِبَطرِيَركِيةِ أنطَاكِيةِ و سَائِرِ الَمشرِقِ للرُومِ الأرثَوذُكس ،

فَكَانَت تُجاوِرُ الكَنِيسَة ، سَيّدةَ فَاضِلة تُلَّقَبُ :

أُم إيلي..

لَقد هَاجَرَ أولادُهَا إلى الَمنفَى ،

مُتَناسِينَ وطَناً يُشبِهُ أُمّاً مُشبَعاً بِالحَنَانِ ،
تَرَكُوهَا تَحتَ رَحمةِ الغُرَبَاءِ و المُتَطَفِّلِينَ ،
تَنَاسوا ذَلِكَ الرَحِم الّذي تَمَرَّغَ بِنُطَفِهِم ،
تَنَاسَوا لَيلَة نَجَاتِهِم إلى هَذهِ الحَياةِ عَابِرينَ ألَمَ المَخَاض ،
تَنَاسوا ذَلِكَ السُلّمَ الأُمُومِيَّ الذي صَعَدُوا على أضلَاعِهِ ليَصِلوا إلى مَلذَّاتِهِم.
نَعم لَقَد وَصَلوا إلى المَهجَرِ ، و لكِنّ لَم يَصِلوا إلى نَظرَةٍ واحِدَةٍ إلى حَنانِ أُمهِم العَجُوزِ .
يَصِلُ عِصَام في السَاعَةِ 00 : 06 ،
مَا قَبلَ أُفُولِ الشَمسِ إلى : بَابِ تُومَا ،
حَامِلاً بِكَفَّيهِ طَعَامَ الغَدَاءِ إلى السَيّدةِ:
أُمُ إيلي ،
و كَعَادَتِهِ يُغرِيهِ ذَلِكَ الحَيُّ الجَذَّابُ المُتَصَارِع مَع سِحرِهِ التَّارِيخي ، تَتَّبعُ عَينَاهُ فِتنَّةَ القَنَاطِرِ و السَوارِي الَمحمُومَةِ بِالَماضِي ، فَأيَّةُ رَوعةٍ تِلكَ التي تُذهِبُ بِشَغَفِك لِتَعبُر جَمَالَ جُدرَانِها ، إنَها ثَروَةُ الشَّامِ و بَهجَتُهَا ..
على مُنعَطَفِ الجَمَالِ و الَكَمَالِ يَصلُ إلى مَنزِلِ السَيّدةِ:
أُمُ إيلي ،
الَمعرُوفَة سَابِقاً بَينِ الدِمَشقِيينَ ، بِالقَابِلةِ القَانُونِيةِ السَيّدةِ : مَاريا حَنَّا...

12

صَبراً دِمَشقَ فكلُّ طَرْف باكٍ
لما استبيحَ مَع الظَلامِ حِماكِ
جُرح العُروبةِ فيكِ جُرح سائِلٌ
بَكتِ العروبةُ كلُّها لبُكاكِ

أحمَد مُحَمد صَالِح

و كَانَ ،

عِصَام البِيطَار ،

يَطرُقُ بَوَابَةِ مَنزِلِ:

أُمُ إيلي ،

بِشَهِيَةِ حَمَامِ السَلَامِ الأبيضِ ،

يَعقِدُ بِجَنَاحِيهِ رِسَالةِ حُبٍ إلى كُلِ ذِّي حَاجَةٍ ،

يَقِفُ مُتَرَقِبَاً فَتح البَوَابَةِ ، يَتَوجَس حَفِيفَ حِذَائِهَا الُمتَبَاطِئ ،فَلَقَد كَانَت امرَأة ثَبطه مِن بَعدِ أن غَزَاهَا رِمَاحُ المَرَضِ ، كالسُكَرِي ، و الضَغطِ ، و ضُعفِ النَظَرِ ، و آلآمِ المفَاصِلَ.

كَمَا أنَهَا كَانَت بَدِينة ، تَتَمَايلُ بِجَسِدِها المُتَثَاقِل ، تَشعُرُ بِأنَها سَتَرتَطُمُ أرضاً ، لِثِقَلِ وَزنِهَا الذي يَبلغُ التِسعِين ، و لَها ابتِسَامَةٍ يُرَافِقُهَا قَهقَهَة ، تُخرِجُكَ مِن صَمتِك ، لِتَنفَجِرَ ضَاحِكَاَ مِن الفَوضَى التي أسقَطت أسنَانَها البَالية ، فَلَقد كَانَت في السِتينياتِ القَابِلةِ القَانُونية الوَحِيدةِ التي تُولِّدُ الحَوَامِلُ في دِمَشقَ القَدِيَمةِ ، فَقَد وَلَّدت وَالِدَيهِ في أواخِر الخمسِينَيَاتِ ، فَعِندَمَا عَلِمَ بِأنَها سَبَبٌ لِوجُودِ وَالِدِيهِ ، أَحَبَّ أن يَرُدَّ شيئاً مِنَ الجَمِيلِ ، يأتِي إليهَا كُلَ يومٍ ليَتَفَقَدَّها و يُعدَّ لهَا الغَداء ،

إنَهَا مَعرُوفَةٍ بَينِ نِسَاءِ دِمَشقَ بِبَشَاشَتِها الصَاخِبةِ ، و ضِحكَتِهَا ، و قَهقَهَتِها ، و رُوحَهَا الفُكَاهيةِ ، و دُعَابَتِها ، و بَعضُ الأحيانِ بِرُجُولَتِهَا الصَلبَةِ .

فَكَانَت تُضمرُ رأسَهَا بِغِطَاءٍ قُماشِي عَاقدةٍ بِزَوَاياهُ خَلفَ جَدَائِلَهَا ، و كَاشِفة عَن عُنَقهَا ، فهُناكَ على صَدرِهَا أيَقُونَّةً للسَيدُ : المَسِيح ، قَد تَدلَّت عَبرة سِلسِلَة فِضيَةٍ ، و ثُوبٍ دَاكِن يَلفُ جَسَدَها كَرَاهِبَاتِ مَعلولة..

و بَعدَ بُرهَةٍ مِنَ الانتِظَارِ يَسمَعُ أَزِيزَ البَابِ يَنّبَثِقُ مِن شَّقِهِ النورِ ، و يَتَلاشَى شَيئَاً فَشَيئَاً حَتى تَظهَر لَهُ:

أُم إيلي ،

وَ قَد احدُودَبَ ظَهرُهَا ، و تَرَهَلّت أضلَاعُهَا ، و كَعَادَتِهَا و بِصُوتٍ جَهُورٍ عَابِرٍ إلى مَسَامِعِ الجِيرَانِ :

مِيّن عَمّ يّدُق البَاب! ..

عِصَام يُبَاغِتُهَا بِالدُعَابَةِ بِصُوتٍ لَطِيفٍ..

أنا يا رُوحِي ... سمعت أنُّو في عنِكُون عَرُوس ، و أنّتِي عِزّ الطَلب ، شُو رَأيك يا حِلوة! ...

أُمُ إيلي ، تَتَرَقَبُ مَجِيئَهُ كُلِ عَصرٍ ، مِن قَبلِ مَغِيبِ الشَمسِ ، لِتَستَأنِس بِهِ و تُمَازِحَهُ و تَتَنَاوَل غَدَائَهَا في حَضرَتِهِ...

تَرُدُ على مِزَاحِهِ ، و قَد غَمَزَت عَينَاهَا بِشِيءٍ مِنَ الإثَارَةِ الشَبَابِيةِ قَائِلَةً:

أيّ وصِلت بَسّ مهرِي غَالي يا رُوحِي ، يلّا فُوت خَلينَا نِتفِق عَلى المَهُر...

يَضحَكُ عِصَام بِعُنفٍ لفُكَاهَتِها ، تِلكَ الدُعَابَةِ التي لا يَسلمُ مِنها أَحَد.

يَقصِدُ عِصَام حُجرَةِ المَعِيشةِ المُنِيفَة على الكَتِدرَائِّيةِ المُتَلألِئَةِ بالأضَواءِ و الأجرَاسِ ،

يَضَعُ بِأثقَالِ الطَعَامِ على الطَاوِلَةِ التي تَتَوَسط الحُجرة ، يَتَسرَّبُ إلى الَمطبَخِ ، حَامِلاً الأطبَاقِ و مُعدَاتِ الطَعَامِ ، فَارِشَاً مَا جَلَبَهُ مَعهُ ، مِن أصنافٍ شَهِيةٍ مِنَ الغَدَاءِ ، يسكُبُ المَاءَ في الكَأسِ ، دَاعِياً لَهَا لتَنَاوِلِ مَا صَنَعتهُ وَالِدَتَهُ ،

إدَّامِ اللحمِ الَمسلُوقِ مع اللبَنِ

و الأرُزِ الطَازَجِ ،

و حِسَاءِ العَدَسِ مع الخُضَارِ ،

يُطعِمُهَا كَمَا تُطعِمُ الأُمُ أبنَها الذي لا يَستَطِيعُ أن يُمّسِكَ مِلعَقَتِهِ ، يُجَفِفُ مَا تَسَاقَطَ مِن فَمِها بِمندِيلٍ بَين كُلِ لُقمَةٍ و لُقمَة ، و تَتَخلَلِ الجَلسَة إفرَاطٌ بِالُممَازَحَةِ ،

فَعندَما تُنهِي طَعَامَهَا يَقِفُ عِصَام على شَكِيمَتِهِ ، يُنَظِفُ الحُجرَةَ ، يَغسِلُ الصُحُونَ ، يَمسَحُ الطَاولةَ ، يَضَعُ ثِيابَهَا في غَسَالةِ المَلابِسِ ، يَرُوي الزُهُورِ التي تَغمرُ النَوافِذ بالمَاءِ ، يَصنَعَ لهَا الشَايَ بِالنَعنَاعِ ، يُنَاوِلُهَا الدَوَاءَ كُلَ صِنفٍ على حِدى ، يَسقِهَا الَماء .

لِتشعل أُمُ إيّلِيّ سِيجَارَتِهَا مَانِحَة لِشَفَتَيهَا ابتِسَامَة حَنُونَةِ كقِطعَةِ السُكَرِ ، تَارِكَة للهَواءِ دُخَانِ السَجَائِرِ ،

تَطلُبُ مِن عِصَام ، أن يَضَعَ لَهَا كَاسِيتّ لِلمُطرِب : وَدِّيع الصَّافِي ،

أُغنِية : يا دَار ،

يُدخِلُ الشَرِيطَ إلى جَوفِ الْمسَجِّلِ

تَرتَفِعُ المُوسِيقى و هِيَ تَعبُرُ الأرواح على دَربِ القَشعَرِيرةِ:

دَار ، يا دَار ، يا دَار..

يا دَار ، قُولِيلِي ، يا دَار..

رَاحُوا فِّين حَبَابّب الدَار ... ! ...

فِّين ، فِّين ، فِّين ، فِّين ، قُولِي يا دَار! ..

تَتَأمَلُ أُمُ إيّلِيّ مِن نَافِذَّتِهَا أُفُولِ الشَمسِ و قَد دَاهَمَ الحُزنُ مَلامِحِ وَجهِهَا كضَبَابِ بِدَاياتِ الشِتَاء ، و بَينِ إصبِعَيّهَا السَبَابَة و الوسطَى سِيجَارة تَتَنَفُثُ في رِحَابِ الألَمِ هَواءِ دُخَانِها ، لَم تَتَمَاسَك احتِمالِ تَّصَبُّرِها الْمتَرَاكُمِ في جُوفِ قَلبِها ، لتَتَسَاقَط على شُقُوقِ خَدِيهَا دُمُوعِ الشَوقِ على فَلَذَّاتِ كَبِدِها ،

أمسِ كَانُوا هُنَا ،

يُطَوِقُونَّ البَيتَ بصَخَبِهِم البَرِيء ،

يلتحفون حَنَانَهَا بِضَحكَاتِهِم الطُفُولِيةِ ،

يفتَرِشُونُ رِقَةَ فُؤادِها ، مُتَشَبِّثِين بِبَقَايَا أُمٍ أفنَّت مَا تَبَقى مِن رُفَاتِ عُمرِها مِن أجلِ بَسمَتِهِم ، نَهَشُوا صِبَاها ، و التَهَموا قِواهَا ، و قَضَموا سَعَادَتِها و هَرَبوا ، و لَكِن إلى أين ؟.. !

إلى حَفلٍ رَبانِيٍ على شَرَفِ القَانُونِ الإلَهي:

كَمَا تَدين ، تُدان ،

فَالعَاق لا تَرجُوا مِنهُ خَيراً ، حتى لو أوصَلَهُ القَدر إلى البَيتِ الأبيَض ، و على سَبِيلِ الخَيَرِ ، أسُوقُ بِكَ إلى المَثَلِ الشَعبّي المَشهُورِ:

الذِي ليسَ لَهُ خَيرٌ لِوَالِدِيهِ و لا لِأهلِهِ ، لا تَرجو مِنهُ خَيراً ،

فَفِي زَمَنِ المَاركَاتِ المَادِيّةِ ، أزُفُّ للعَاقِينَ بُشَرَى تَلِيقُ بِعُقُوقِهِم ، و ليَضَعوا هذهِ الكَلِمَاتِ حَلَقاً في آذَانِ ضَمَائِرَهُم ، إن بَقيَ لَهُم ضَمِير ، يا نَاكِرَ المَعرُوف:

لَم تَنتَهِي اللُعبَةِ بَعد ... سَوفَ تَرى مَا صَنَعتَ ، في كَنفِ الدَهرِ ، وَيلاتٍ و لَعَنَاتٍ مِن بَوَائِقَ عُقُوقِكَ..

لم تَتَماسَك أُمُ إيّلِيّ دَموعَهَا ، حَتّى أجهَشَتِ بِالبُكَاءِ ، مُصطَحِبة مع حُرقَتِها كَلِمَاتٍ بِصُوتٍ مُغّتَمٍ:

لَكَ حَرَام يا أبّنِي يا عِصَام ، لَو كَانُوا أولادِيّ يِلّي عَمّ يُخدِمُونّي هَلَقّ!..

نَهَضَ عِصَام يُجَفِفُ بِأصَابِعِهِ دُمُوعَهَا ، و قَد أَثَّر ذَلِكَ المشهَدِ في أعمَاقِ مَكَامّنَهُ ، مُعَقِباً على كَمَدِها:

أَنَا ابّنِك يَا أمّي ، مَا لَّح اتُرُكِك يَا رُوحِي ،

الله يهدِيهُون و يرَجِعُون لِعقُولهن ، و يجمَعِكّ فِيهُونّ ،

و الله مَا بخَلِيّكِي وَحدِكّ ، لا تخَافِي يَا أِمّي...

لَملَمَت أُمُ إيلي ، ابتِئاسَها ، مُحَاوِلةً مَنعِ تَصَبُبِ الدُمُوعِ ، و شَيئَاً فَشَيئاً ، تَصفُوا تِلكَ الكُدُرةِ مِن احتِبَاسِ الشُحُوبَةِ ، عَابِرة لِنُتُوءَاتِ شَفَتِيهَا ابتِسَامة نَقِيَة ،

لَقَد أوصَى الكِتَابِ المُقَدَس ، في رِسَالةِ بُولُس الرَسُولِ ، إلى أهلِ أُفسُس ، 6 : 2 .

أَكرِم أَبَاكَ و أُمُكَ ، التي هَيَ أوَلُ وَصِيةٍ بِوَعدِهِ .

و قَالَ أيضاً في : سفرِ الأمثَالِ ،. 26 : 19

المُخَرِّبُ أبَاهُ و الطَّارِدُ أُمَهُ هُوَ ابنٌ مُخزٍ وَ مُخجِلٌ.

و عِندَمَا لاحَظَ عِصَام ، عَودَةِ الأسَارِيرِ إلى طَبِيَعَتِها ،

احتَضَنَهَا بِرَأفَةٍ ، نَافِضَاً دُخَانِ عُزلَتِهَا ، عَاقِداً مِيثَاقَ البُنوةِ ، حَازِماً على أن لا يَتَخَلّى عَنها.

السَاعَة 30 : 07 ،

بِتَوقِيتِ الأُمَهَاتِ الصَابِراتِ ،

بِتَوقِيتِ كُهُولَةِ الأمُومَةِ و هَرَمِ الأُبُوَةِ ،

بِتَوقِيتِ الإقّلَاعِ عَنِ الأسىَ و التُوبَةِ مِنَ الاغتِمَامِ ،

بِتوقِيتِ اندِثَارِ اللَيلِ و انصِهَارِ النَهَارِ ، بِتُوقِيتِ أُفُولِ الخَيّبَاتِ و بُزُوغِ الأَمَلِ ،

يُوَدِعُ عِصَام أُمُ إيّليّ ، تَارِكَاً في قَلبِها جُرعَةً مِنَ الرَاحَة.

13

للياسمينِ حُقولٌ في مَنَازِلِنا
و قطّةُ البيتِ تغفو حيثُ ترتاحُ
طاحونةُ البِنّ جزءٌ من طُفولتِنا
فَكيفَ أنسى ؟ و عطرُ الهيلِ فَوّاحُ
هَذا مكانُ أبي المُعتزِّ منتظرٌ
و وجهُ فائزة حلوٌ و لماحُ
هنا جُذوري هنا قلبي هنا لغتي
فكيفَ أوضحُ ؟ هل في العشقِ إيضاحُ ؟

نِزَار قَبّانِي

و كَانَ ،

عِصَام البِيطَار ،

يُزَاحِمُ حَمُولَةِ الَمسَاءِ بِصَلَاحِهِ ،

يُجَارِي اكتِحَالِ الظَلَامِ بِبَرِيقِ نُورِهِ ،

يُجَارِي بُرُوزِ البَدرِ بِلَبَاقَتَهِ ، مُتَعَثِرَاً بِاحتِشَادِ النُجُومِ أبَّانَ إنَافَتَهِ ، فَكَانَ كالُمهَاجِر إلى عُيُونِ الفُقَرَاءِ ، و إلى ضَعفِهِم و بَسَاطَتِهِم ، و إلى أمعَاءِ الَمسَاكِينِ وَ المَظلُومِين و الُمشَرِدِين ، يَرحَلُ مَعَهُم بِمَشَاعِرِهِ ، مُتَعرِياً مِنَ الحَقَائِبَ المَملُوءةِ بِمَلذَاتِ الدُنيا ، يَتَسَرَبُ إلى أَروَاحِ البُؤَسَاءِ مُتَجَرِدَاً مِن أَيَّةِ تَأشِيرَةِ دُخُولٍ ، يَتَسَلَلُ إلى ضَنّكِ الضِعَافِ كَنَسمَةٍ مُتَوسِدَاً افتِقَارَهُم مُلتَحِفَاً فَاقَتَهُم.

فَلَم يَكُن اسمَهُ ،

مِنَ الأسمَاءِ التي تَتَصدّرُ عَنَاوِينَ الصُحُفِ الصَباحِيةِ ، و لا خَبَراً عَاجِلاً في الفَضَائِياتِ الإنسَانِيةِ ، بَل كُنتُ أجزِمُ بِأنَ مِثلَ هَذهِ الأقمَّارِ تَتَصَفَحَهُم المَلائِكةِ في السَماءِ ، و تُقَلِّبَهُم الأفّواهُ التي تَرتَعِدُ سَغَبَاً ، و تَرمُقُهُم الطُرُقَاتِ لِمُرُورِهِم ، كَالغُيُومِ التي أصَابَهَا مَخَاضُ الإحسَان ، واضِعةً بِأحمَالِها في كَفّةِ الثَّرَى المُتقِدِ ظَمَئاً.

فَفي زَمَنِ العُولَمة الكَاذبةِ ، و عَصرِ المَادِّياتِ ، و المَظَاهِرِ المُقَنَّعة ، و البُطُونِ المُنتَفِخة ، و المَصَالِحِ المُلوثةِ ، هُنَاكَ تَحتَ أدِيّمِ الفَقرِ تُمَارِسُ

الأوَانِّي الشَاغِرَةِ بِعُمّقِها الُموحِش ، و مُعَاشَرَتِها مَع أمعَاءِ المَسَاكِينِ ، بِكِفَاحٍ مُحتَدِمٍ مَع الكَرَامَةِ ،

، فَلَقَد كَانَ عِصَام يُدرِكَهُم بِكُل مَا أُوتِي مِن إحسَانٍ ، بِمَشَاعِرِهِ و عَواطِفِهِ و مَالِهِ ، أنَهُ أيقُونَةٍ على شَاكِلةِ خَبَرٍ عَاجِلٍ ، تَتَرَصَدَهُ النَظَرَات التي تَشتَهي لَمَعَانِ الزِيتِ و بُخَارِ الخُبزِ .

السَاعَة 00: 08 ،

بِتوقِيتِ غَسَقِ أُولِياءِ اللهِ الصَالِحِين ،

بِتوقِيتِ دُجنَّةِ كِساءِ كُلِ رَاهِبٍ و قِسيس ،

بِتوقِيتِ سَتَائِرِ العَتّمَةِ المُسدَلةِ على سَمَاءِ الشَامِ ،

يَتَجِهُ عِصَام إلى حَي : الصَالِحيَّةِ الدِمَشّقِي ،

الذي يَتَمركَزُ على سَفّحِ جَبَلِ قَاسَيُّونَ ذَلِكَ الوَتَدُ العَظِيم ، و يمتد حي الصَالِحيَّةِ من بوابة الصَالِحيَّةِ جَنُوباً إلى جَامِعِ الأربَعِين شَمَالاً ، و مِن مَسجِد أبُو النُورِ شَرقَاً إلى العَفِيفِ غَربَاً ، و حَي الصَالِحيَّةِ تَارِيخهُ اجّتَازَ عَبِيرَ الشَرَفِ و الصَلاحِ ، كَمَا أنَهُ اتَضَحَ تَلألُأً في الفَتَراتِ : الأيّوبِيَّةِ و الزّنكِيَةِ و المَمّلُوكِيَّةِ إلى زَمَنِنَا هَذا .

و لقَد أيّنَعَت الصَالِحيَّةِ بِغَزَارةِ عُلَمَائِها مِن الأكرَادِ و المَقَادِسَةِ و المَغَارِبَةِ ، أولئِكَ القَادةِ الذينَ شَهِدَ عَليهِم إيمَانَهُم بِالعِزةِ و القُوةِ و المَنَعةِ ،

كَمَا يَحتَوي على العَديدِ مِنَ الصُرُوحِ التي بَنَاها الأكرَادِ الأيوبِيينَّ ، كَمَقَامِ الْمقَدَمِ ، و مُجَمَعِ أبُو النُورِ ، و مَقبَرَةِ الأكرَادِ الأيّوبُيّةِ ، و الَمدرَسَةِ الرُكنِّيةِ ، و المَعهَد العُثمَانِي ،

كَمَا تُزَاحِم أضرِّحَةِ الأولِياءِ و الصَالِحينَّ زَوايا الحَيِّ مِن كُلِ بِقَاعِ الصَلاحِ ، كَمَقَامِ :

الإمِامِ الأكبرَ ، مُحيي الدِينِ ابنِ العَرَبيِّ ،

شَيخِ السَادَةِ الصُوفِيّةِ ، الْمتَوَفّى 638 : ، هجري ، 1240 ميلادي ،

و مَقَامِ ، الإمَامِ العَلامَةِ :

عَبدُ الغَنِّي بِنِ إسمَاعِيلِ بِنِ عَبدِ الغَنِّي النَابُلسِّي الدِمَشقِي الحَنَفِّي ،

المُتَوَفّى 1641 : هِجرِي ، 1731 مِيلادِّي ،

و لَهُ مِنَ الْمؤلَفَاتِ و التَصَانِيفِ مَا يَشرَحُ القُلُوبِ ،

و مَقَامِ ، العَارِّفِ بالله العَلامَةِ الشَيخِ :

سَعيدِ مِلا رَمَضَان البُوطِّي ،

و مَقَامِ ، الشَاعِرِ و الفَيّلَسُوفِ و السِيَّاسِي و المُجَاهِد الأَمِيرِ : عَبدُ القَادِرِ الجَزَائِّري ،

المُتَوفَّى : 1300 : هِجرِي ، : 1883 مِيلادِي ،

و قَد نُقِلَ رُفَاتَهُ بَعدِ استِقلالِ الجَزَائِرِ ،

و مَقَامِ ، شَيخِ القُرّاءِ العَلامَةِ الشَيّخِ :

مَحَمد طَهَ سُكر ،

الُمتَوَفّى : 1429 : هِجرِي ، : 2008 مِيلادِي ،
و مَقَامِ العلامَةِ و مُفتِّي الجَمهُورِيةِ العَرَبِيةِ السُورِيةِ :
أحمَد كِفّتَارُو ،
المُتَوَفّى : 1452 : هجري ، : 2004 ميلادي ،
كَمَا أَقَامَ بِها المَقَادِسَةِ في عَهدِ الحُرُوبِ الصَلِيبِيةِ ،
فَالصَالِحيَّةِ خَلِيطٌ مَجبُولٌ بِالنُور و العِلمِ و الإيمَانِ ، تَركَنُ لَهَا الرُوحُ في كُلِ ليلةٍ مُقّمِرَة..
فَلقَد كَانَ عِصَام تَستَهويهِ صَلاةُ العِشاءِ في مَسجِد ،
الإمَامِ الأعظَمِ الشَيّخِ :
مُحيِّي الدِينّ ابنِ العَرَبِي ،
و لَقد عُرِفَ بِمَسجِدَ : الخِنّكَارِ ، أو مَسجِدِ : السُلَيّمِي.
المُنِيفِ على نَهرِ يَزِيدٍ ، في مَنطِقَةِ : أبُو حُوشّ.
يَتَسرَبُ عِصَام بِطُهرِهِ إلى صَحن المَسجِدِ العُثمَانِّي المَرّصُوصِ بِالرُخَامِ المُزَخّرَفِ ، و الأحجَارِ البَازِلتِّيَةِ المُلَوَنَةِ ، فَفِي حَرَمِهَا تَجّثُمُ بُحَيرَة كَشِفت فَناءِ السَماءِ المُدّلَهِمَةِ بِعَتمَةِ المسَاءِ ، على قُدِسِيَّةِ مِيَاهِ البُحَيرةِ يَتَوَضَأُ ، مُبَلِلاً أطرَافهُ ، مُطَهِراً أعضَائَهُ ،
لِيَتَسّرَبَ إلى سُكُونِ المَساءِ صُوتِ الحَقِ ، مُدَوِيَّاً:
اللهُ أكبر
اللهَ أكبر ،

يَتَسَارَعُ البَاعَةِ و التُجَارِ المُحِيطُونُ بِالَمسجِدِ لِتَلبيَةِ نِدَاءِ العِشَاءِ ، تَصطَفُ الأقدَام مُحَاذِّيةِ للأكتَافِ مِن بَعدِ أن كَبَّرَ الإمَامُ للصَلاةِ ، و تُخّتَتَمُ بِالسَلَامِ بَعدِ مَعرَكَةٍ يَومِيةٍ مَع لُعَابِ الدُنّيَا ،

لِيَتَفَرقَ النَاسُ مُتَصَافِحِينَ مُبتَسِمِينَ مُتَغلَغِلِينَ بالرَاحَةِ و الطَمأنِينَةِ في رِحَابِ صَاحِبِ المَقَامِ ، الإمَامِ الأعظَمِ الشَيّخِ :

مُحيي الدِين ابنِ العَرَبِي ،

تَتَهَافَتِ الرَؤوس ، مُوَدِعَةً ضَرِيح الإمَامِ ،

و تَحتَ قُبّةٍ خَضرَاءَ ، كَالقُبَةِ النَبَويَّةِ الشَرِيفَةِ يَرقُدُ الإمَامِ ، في الحُجرَةِ مِن الزَاويَّةِ الشَرقِيَّةِ الجَنُوبِيَةِ للمَسجِدِ ، على سُلَمٍ حَجَري تَهويَ الأعنَاقُ طَائِفَةً حَولِ القَفَصِ الفِضي الذِي يَحرُسُ المَقَامِ ، كَمَا يُجَاوِرَهُ مِنَ الأضّرِحَةِ أبنَاءِ الإمَامِ :

سَعدِ الدِينِ ، و عِمادُ الدِينِ..

و ضَرِيحِ :

مَحمُود سِري بَاشَا ،

صِهر الخِديُوي إسمَاعِيل ، حَاكِمِ مِصرَ..

و مَقَامِ الأمير :

عَبد القَادِرِ الجَزَائِرِي..

و ضَرِيحِ الشَيخِ : مُحمَد أمِين خَرَبُطلّي..

و شَيخِ القُراءِ العَلامَةِ :

مُحمَد طَهَ سُكَر..

في حَضرَةِ أولياءِ الله ، تَنتَابُكَ قَشعَرِيرَةً تَتَسلل تَحتَ مَكَامِنِ الجِلدِ ، كما يَتَسَلَلُ الوَجدُّ إلى تَأجُجِ الرُوحِ ، مِن مَهَابَةِ المَشهَدِ الذي يَصفُقُ بِالقُلُوبِ، على كُومَةِ الجُمُوعِ التي أغرَقَتِ قُدسِيَةِ المَقَامِ ، يَقِفُ عِصَام ، رَافِعاً كَفِيهِ ، دَاعِياً مُتَضَرِعَاً ، كَمَا كُنتُ أسمَعَهُ :

اللهُمَ اغفِر لأولِيائِكَ و أرحَمهُم ، عَدَدَ مَن قَالَهَا ، و يَقُولَها القَائِلُونَ ، مِن أولِ الدَهرِ إلى آخِرِه ، و عَدَدَ مَا أحصَاهُ كِتَابُ الله و أحَاطَ بِهِم عِلمُكَ ، و أضعَافِ ذَلِكَ أضعَافاً مُضَاعَفَةً ، و كُلِ ضِعفٍ يَتَضَاعَفُ مِن ذَلِكَ مُضَاعَفَةٍ ابَدَ الآبِدِينَ ، و مُنّتَهَى العَدَدِ بِلا أَمَدِ لا يُحِيطُ بِهِ إلا عِلمُكَ ، و أغفِر لأبَي و أمُي ، و أخِوانِي ، و صَاحِبي ، يا أرحَمِ الرَاحِمِينَ..

و بَعَدَ الانتِهَاءِ مِنَ الدُعَاءِ ، أسألَهُ بِتَعجُبٍ:

مَن هُو صَاحِبُكَ .. !

الذي آثَرتَهُ بِهَذِهِ الدَعوةِ ، في هَذا المَقَامِ الذِي تَعبُقُ مِن أرجَائِهِ أَرِيج التَجَلّي و السَكِينَةِ و المَهَابَةِ! ؟..

أجَابَنِي:

بِثِقَةٍ ، مِن بَعدِ أن تَهَلَلَ وجهُهُ بِابتِسَامَةٍ مَكّسُوةٍ بِالبَشَاشة ،

قَائِلاً:

أَنتَ صَاحِبِي ، و لا أحَدٌ لي غِيرُكَ صَاحِباً و خَلِيلاً ..

14

و رَكبتُ بالأشواقِ نحوَ دِمشقِنا
في أيمِ آمالِ التلاقي .. زورَقي
كالهَائمِ الملهُوفِ غنَّى حُبَهُ
جهراً بلحنٍ كالنَسيم مُرققِ
تنهلّ بالأجواءِ مِنهُ أطايبٌ
فلٌ و ريحانٌ بِجانبِ زنبقِ

صَبري الصَبري

و كَانَ ،

عِصَام البِيطَار ،

أُمسِيَتَهُ مُأدلَجةٍ اللَمَعَانِ بِشُهِبهَا المُنزَلِقَةِ على جُنُونِ دِمَشقَ ،

يَهزُمُ بِلَهِيبِهِ بَرِيقَ النُجُوم ،

مُتَصَوِفَة لَيلَتَهُ كَمُولَولِيٍ ، يَتَرَاقَصُ في فَضَاءِ الوَّجد ،

مُتَنّسِكَة ليلَتَهُ كَشَاذُلِي ، أرعَشَتهُ أورَادِ الذكرِ ،

مُتَذَلِّلة ليلَتَهُ كَرِفَاعِيٍ ، شَدَّ أوتَارِ سُبحَتَهُ مُتَمتِمَاً ،

مُتَرَهِبّةٍ ليلَتَهُ كَنِقّشَبَنّدِيٍ ، تَضلَّعَت رُوحَهُ أُنساً بالله.

في ضِيَافَةِ لَيالي الصَالِحيَّةِ ، و في رِحَابِ مَسجِدِ الإمَامِ الأعظَمِ الشَيخِ :

مُحيي الدِين ابنِ العَرَبِي ،

يُثنِّي عِصَام تَعَبَهُ على أحَدِ السَوارِي ، سَانِداً ظَهرَهُ ، طَاوِياً قَلبَهُ ، تَحتَ الرِوَاقِ الغَربِي المَكسُوِ بقَنطَرةٍ عُثمَانِيةٍ ، لِتَحمِلَ أُوزَارِ ثِقَلِهَا أربَعة أعمِدةٍ ضَخمّةٍ ، مُرَتقِبَاً خُلوّ المَسجِد مِن المُتَعَبِدينَ.

السَاعَة 40 : 08 ،

بِتَوقِيتِ أَولِياءِ الله الصَالِحينَ ،

بِتَوقِيتِ خَلعِ رِدَاءِ الشَهَوَاتِ و ارتِدَاءِ صَفوَّةِ الصَفَاء ،

بِتَوقِيتِ خَلوَةِ الإيمَانِ في مِحرَابِ التَجَلِيَاتِ الرَبَانِيَّةِ ،

لَقَد أنعَمَّ الخَالِق على هَذهِ الرِحَابِ الطَاهِرةِ ، بِأن هَيَّأ خَدَماً بِمَقَاييسٍ خَارِقةٍ للعَادةِ ، على شَاكِلةِ كَرَامَاتٍ قُدسِية ، فَمِن إحسَانِهِ و امتِنَانِه بِأنَهُ أرسَل لِلحَرَمِ الصَالَحَاتِّي :

خَمسَةَ عَشَرةَ : مَنّغُولِياً ،

هُم أشخَاصٌ ابتَلاهُم الله بِداءٍ مُزّمِن ، ألا و هُوَ دَاءِ : التَوَحُدّ ، أو الذَّاتَويّة الُمزمِن ، فَلَقَد عَجِزَ العُلَمَاء عن إيجَادِ دَوَاءٍ لهَذَا الدَاءِ مَرَضِ التَوَحُدِ :

هَوَ اضطِرَابٌ في النُمُو العَصَبّي ، الذِي يَتَصِف بِاجتِيَاحِ التَفَاعُلِ الاجتِمَاعِي ، و التَوَاصِلِ اللفظِي و غَيرِ اللفظِي ، و بِأنَماطٍ سُلُوكِية مُقَيَّدة و مُتَكرِرَة ، فَتَجِدَ أَشكَالَهُم جَمِيلَة في عُيُونِ الإنسَانِيةِ ، قَبِيحَة في عُيُونِ الُمعَاقِينَ أخلاقِياً .

خَمسَةَ عَشَرَ مَنّغُولِيَّاً يُنِيخُونَ أجسَادَهُم في بَاحةِ المَسجِدِ ، مُتَرَبِعِينَ على صَفَاءِ قُلُوبِهِم ، و قَد تَعَالت ثَرثَرَتِهِم الخَافِتَّةِ في حَضرَةِ صَاحِبِ المَقامِ ، مِن بَعدِ أعيَاهُم التَرَقُب و الانتِظَارِ ،

مُتَوَجِسِينَ مُغَادَرَةِ الُمتَوَافِدِينَ ، لِكي يَغمِسُوا سَوَاعِدَهُم الثَخِينَةِ بِأكنَافِ بَيتِ الله ، مُطَهِرِينَ أكنَافِ الَمسجِدَ ،

فَكَانَ عِصَام يُعدُّ نَفسهُ وَاحِداً مِنهُم ، فَلَقَد كَانُوا يَعرِفُونَهُ كَمَا يعرِفُونَ مَسجِدَهُم.

و عِندَمَا يَخلوا الَمسجِدَ بِهِم ، يُغلِقُونَ البَوابَةِ الرَئِيسِيةِ ، و يُقفِلُونَ كُل الَمنَافِذَ ، لِتَرَى العَجَبَ العُجَابِ ، يُشَمِرُونَ عن سَوَاعِدَهُم و يَكَفُّونَ سَرَاوِيَلَهُم ، مُدَجَجِيّنَ بِمُعِداتِ التَنظِيفِ ، مُتَأهِبِين بِجَانِبِ بَعضِهِم البَعضِ ، كَأسنَانِ المِشطِ المُغَلَّظَةِ.

فَلقَد كَانَ عِصَام يَصّطَفُ مَعَهُم آخِذاً الأمَرَ مِن كَبيرِهم ، يُوَزِعُ المُدَبِرَ المَهَامَ ، الَمعرُوفِ في حَيِّ الصَالِحيَّةِ ،

بِالشَيخِ : أَبَو مِحيّي الدِينِ ،

و كَانَ أبُو مِحيِيّ الدِين مَنّغُولِياً كَبَقيَةِ أقرَانِهِ ،

يَرتَدي بِنَطالٍ بِخِصرٍ عَرِيض ، بِسَبَبِ بَطنِهِ المُتَدَفِقِ فُوقَ الحِزَامِ ، و يُغَطي رَأسَهُ المُبَطَنّ بِالدِهنِ طَاقِية خَضرَاء بِمَقَاسِ وَاسِعٍ ، و لَهُ وَجنَتَانِ حَمرَاوَانِ مُتَرَهِلَتَانِ ، تَتَوسَطَهُمَا شَفَتَانِ عَرِيضَتَانِ ، و عِندَمَا يَتَكلَم يَبتَلِع نِصفَ العِبَارَةِ بِسَبَبِ عَاهَةِ اللِسَانِ التي عَاقَت فَمَهُ ، و قَد سَقَطت أسنَانَهُ مِن بَعدِ أَن أَغَارَ عَلِيّهَا التَسُوسَ ، لِشَغَفِهِ بِالحَلَوِيَاتِ ، التي يَهِبُهَا المُتَبَرِكِين بِالمَقَامِ لهَؤلاء الأنقِياءِ ، إكرَاماً لِجُهُدِهِم وخِدَماتِهِم لِسُلطَانِ الأولِياءِ.

فَكَانَ الشَيخُ أبُو مِحيّي الدِين ، يُلزِمُ عِصَام بِأن يُنَظِفَ جُزأ مِنَ المَسجِد ، فَيَومٌ يُكَلفَهُ بِتَنظِيفِ البُحَيرَةِ التي تَتَوَسَطُ فَنَاءِ الَمسجِدَ ، يوم يَأمُرَهُ بِمَسحِ زُجَاجِ النَوَافِذَ ، و يُومٌ يُرسِلَهُ لِتَطهِيرِ بَيتِ الخَلاءِ ، و يُومٌ يُنَزِلَهُ إلى المَقَامِ لِغَسلِ الجُدرَانِ ، و يُومٌ يُوَجِهَهُ بِتَطِيبِ و تَبخِيرِ الأروِقَةِ ،

و كَانَ الشَيخ : أبُو مِحيّي الدِينَ ،
قَيادِياً مُمَازِحَاً لأصدِقَائَهُ ، فَلَقَدّ كَانَ يُكَلِّفُ عِصَام ،
قَائِلاً لَهُ بِشُمُوخِ القِيَادِيينَ:
أي يَا شَاغُوري ، أنتَ اليُوم لَحّ أبعَتَك عَالحمَامَات ،
إزا بشُوف شِي بَره الطَرِيق بُكرَة مَعزُومِين عا الغَدَى عِندَك هاااا! ...
يُصغِي عِصَام لأوَامِرَهُ ، و قَد حُبِسَت في أحشَاءِ جُوفِهِ قَهقَهة خَافِته مِن تَهدِيدِ الشَيخ : أبُو مِحيّي الدِينَ ،
يُبَاغِتُ عِصَام الشَيخِ مُتَذَلِلاً:
بِأمرَك شِيخِي ، بَسّ بِدنَا الرِضَى ، كُل اوَامركُون عا رَاسِي مِن فُوق ، أنِتَ بَسّ أَشِر و أنَا خَدام لأوَامرَك.
الشيخ ؛ أبو محيي الدين ، ينتَفِضُ بِعَنجَهِيةٍ مُصطَنَعةٍ ، قَائِلاً:
يلا لَشُوف بَلا لَتّ و عَجِن ، و كِترِت حَكِي و غَلَبة ، عا شِغلَك لَشُوف.
يُبَاشِرُ عِصَام تنفِيذِ الأمرِ ، مُنصَاعاً لِتهذِّبِ قَلبِهِ و تَروِيضِ جَوَارِحِهِ لُصنعِ الخَيرِ ،
يُشَمِّرُ عَن قَدَمَيهِ و سَاعِدِيهِ ، سَاكِبَاً المِيَاهِ الَمغلِيَةِ بِالُمعَقِمَاتِ و الُمعَطِرَاتِ على الرُخَامِ ، فَارِكَّاً الزَوَايَا بِمِكنَسَةٍ خَشِنَةٍ ، يَتَصبَبُ العَرَقُ مِن جَبِينِهِ بِشَكلٍ عَشّوَائِي ، يُنهِي مَا كُلِفَّ بِهِ بِإتقَانٍ و إخلاصٍ ، يُجَفِفُ الجُدرَانَ بِقِطعَةِ قُمَاشٍ مُعَطَرة ، تَشذّو رَائِحَةِ الطِيّبِ بِلا خَجَلٍ في الأرجَاءِ ، تَارِكاً للمكَانِ طَهَارَة تَتَحدث عَن نَصَاعَتِها ،

و بَعدَ الانتِهاءِ ، يُسَارِعُ بِالخُرُوجِ مِنَ المَسجِدِ ، مُتَجِهاً إلى شَارِع البَاكِستَانِي في مَنطِقَةِ السَبّع بَحرَات ، قَاصِداً متجَّر:

أبُو عَلي ، لبَيعِ الحَلَوياتِ ، فَكَانَ يَشتَرِي الحَلَوِياتِ الشَعبِيَةِ في كُلِ لَيّلَةٍ ، عَائِداً بِأحمَالِهَا إلى مَسجِدِ الإمَامِ الأعظَمِ الشَيخ :

مُحيّي الدِينّ ابنِ العَرَبِي ،

يَلِجُ الَمسجِدَ بِيَمِينِهِ ،

لِيَجِدَهُم قَد تَحَلَّقُوا مُحِيطَ مَقَامِ سُلطَانِ العَارِفِينَ الإمَامِ الأعظَمِ الشَيخ :

مُحيي الدِين ابنِ العَرَبِي ، بَعدَ أن أنهُوا عَمَلَهُم ،

فَمِن كَرَامَاتِ الله بِأن وَهَبَهُم أصوَاتٍ تَصدَحُ بِالمَدِيحِ و الأنَاشِيدِ و المُوشَحَاتِ التي تُمَجِدُّ رَسُولِ اللهِ و أولِياءِ الله ،

فَلَقَد أنعَمَ اللهُ عَلى بَصِيرَتَهُم بِحِفظِ قَصِيدَةِ:

البُردَةِ الشَرِيفَة ،

و هِي مِن أشهَرِ القَصَائِدِ في مَدح النَبي : مُحَمَد .

كَتَبَهَا الإمَامُ : مُحَمَد بِنِ سَعِيدِ بِنِ حَمَادّ الصَنّهَاجِّي البُوصِيرِي ، المُتَوَفّى : 608 : هِجرِي ، : 1295 مِيلادِي ،

فَكَانَ عِصَامُ يَندَرِجَ بَينَهُم ، و هُم يَصدّحُونَ بِحَنَاجِرِهِم ، و يَتَمَايَلُونَ بِرُؤوسِهِم و أجسَادِهِم ، و قَد تَعَالَتِ أصوَاتُهُم شَذّاً و إنشَاداً ، مُرَدِدِينَ:

مُحَمَدٍ سِيدُ الكُونَينِ و الثَقَلِينِ..

و الفَرِيقَينِ مِن عُربٍ و مِن عَجَمِ..

نَبِينُا الآمِر النَاهِي فَلا أحَدٌ..
أبَرُ في قُولاً مِنهُ و لا نَعمِ..
هُو الحَبِيبُ الذي تُرجَى شَفَاعَتُهُ..
لِكلِ هُولٍ مِنَ الأهوَالِ مُقتَحَمِ..

في ضِيافَةِ سُلطَانِ الأُولِيَاءِ ، تُطرَبُ القُلُوبِ لمَدحِ النَبّي ، و تَصفُوا الأروَاحِ بِشَذا التَرانِيمِ ، و تَتَمَايلُ الأعنَاقِ كَأنَهُم سُكَارَى مِن شِدَةِ الوَجدِّ ، يَقِفُ عِصَام لِيُفَرقَ الحَلوى على هَذِهِ الأيادِي التَقيَةِ ، تَقَرُبَاً إلى مَن تَركَنُ إليهِ القُلُوبِ .

15

الحُرِّية:

هِي الحقُّ أن تَقُولَ لِلنَّاسِ مَا لَا يُرِيدُونَ سَمَاعَهُ

جورج أورويل

و كَانَ ،

عِصَام البِيطَار ،

يَتَجَرَدُ مِن مُؤَامَرَاتِ الَهوَى ،

طَارِحاً وَرَاءهُ مَجلِساً مَأهُولاً بِالذِكرِ ،

لِيَنسَحِبَ مِن بَعدِ أن يَجرَد شُبهَاتِ الغَفلَةِ ،

قَاطِعَاً مُرَاوَغَةِ النَفسِ و مكايدِهَا ، مُنتَعِلاً أزِقَةِ اليَاسِمِين بِزِيّهَا المُغرِي ، فَكَانت تُثِيرَهُ جَدَائِل الدُجَى المُتَمَرِدَة على لَيلِ دِمَشقَ ، و سَمَجِّ الطُرُقَاتِ الشَاغِرةِ من قَحطِ الخُطَى الُمضرَمَةِ بِالذُّلِ ، و بَينَ مِلحِ العَتمَةِ الُمرعِب ، و سُكَرِ البَدّرِ الشَهّي تَتَوَارى الأصوَات نَزِيلَة في غَيَّاهِبِ النُومِ ، تَكبُوا الأجسَادُ على سُبَاتِهَا بِلا كَرَامَةٍ و لا حُرِيةٍ ، و يَفنَى اليَاسِمِين المُغتَصَب و الحَمَامِ الَمذّعُورِ و التَارِيخِ المَكذُوب و بَعضِ البَشَرِ المَأجُورِينَ ، في قَبضِةِ سُرَّاقِ الوَطَن ، لِيَغفُوا الوَطَنُ على شَقَائِهِ و تَستَيقِظ العُيون المَاكِرَة ، لِتَجُوب الظَلام بَحثَاً عن بَقَايا نَبضٍ في هَذا الوَطن ، تحتَ مَثوَى صَمتِنا تُعقَدُ صَفَقَاتٍ مُثَخَنَة لِمَلئِ خَزَائِنَهُم ، و فَوقَ ذُعرِ الخُوفِ تُنهَبُ كَرَامَتِنا على مرءَ الهَاتِفِينَ بالدِمُقرَاطِيةِ ، خلفَ أعلامِ جَمَاجِمنا يَتَنكَرونَ بِطُهرِ التُرابِ المُخضب بِدِماءِ أسلافِنا ، يَغتَالونَ كُل حُلمٍ تَاقَ للانعِتَاق ، فَتَجِدَهُم يَتَهَاذونَ خَلفَ مَنَاصِبِهم الحَافِلةِ بالمَظَالِمِ .

فكَانَ عِصَام يُلملمُ أدرَاجَهُ السَخِية ، مُطلِقاً لقَدَمَيهِ حُريَةِ التَوجُهِ إلى منزِلِه في حيّ الشَاغُور الدِمَشقي .

السَاعَة 10: 00 ، ليلاً

بِتوقِيتِ سَرَائِرِ الضَمَائِرِ النَقِيَةِ ،

بِتوقِيتِ ظَفَرِ الحَقِ على البَاطِلِ ،

بِتوقِيتِ فَكِّ ألغَازِ الخَشيَة التي تُطوّق ذِهنَهُ ،

يَسِيرُ جَريء الخُطَى على أكوَامِ نَقَمِهِ ، سائِلاً الوَجَس المُشتَعِلِ في بِطَانَتِه ، مَن المُدَبِر لاجتِثَاثِ الأقلامِ التي تَنبِضُ بالحُريةِ على سُطُورِ الوَطن! ؟ ..

مَن المُعِدّ لتَروِيضِ نَجَابَةِ المُفَكِرِينَ في وَطَنٍ يَحدَّهُ الخُوفُ و الرُعبُ مِن جوَانِبِهِ المَنهُوبَة! ؟ ..

مَن الرَاعي الرَسمِيّ الذي بَثَّ تحتَ حَنَاجِر الشَعب فوضَى الهزَائِم و ضَوضَاء الانكِسَارات! ؟ ..

مَن الذِي شَرَّعَ مَنَاقِب الخُضُوع ، و صَدّرَ فضَائِلَ الخُنُوع ، و أقَامَ لِواءِ الهَلع في عَقِيدَةِ الوَطن! ؟..

مَن هُو فَزّاعَةِ البِلاد ، و سَفَاح العِبَاد ، و مَن هُوَ أبُو لهَب ، و الحَاشِية المُحَملة بالحَطب ، و نُطفَتِهِ الدَنِسَه التي تَقتَاتُ على ثَديَيّ الوَطن! ؟

مَن هُم أصحَابِ البُطُونِ المُنتَفِخَة ، المُترَعَة بالحَرامِ و الإجرَام ، التي جَعَلتنَا نَحلُم ، لأن نَحلُم بالوَطن! ؟ ..

مَن الذي أبرَمَ صَفقَة رِقٍّ ، لِبَيعِنا في أسوَاقِ العُبُودِية ، لنُمَجِدَ طُغيَانِهِم ، و نُبَارِكَ استِبدَادَهم ، و نُقَدِسَ غَطرَسَتهم! ؟..

مَن الذِي أوحَى لتَمَردهِم بِإخرَاسِ الأفوَاهِ التي تَخفِقُ إيمَاناً بِحُرية الوَطن! ؟ ..

إلى مَتى تَتَجرعُ الشُعوب خِطَابَاتٍ مُخَدَرَة ، و شِعَاراتٍ مُلفَقة ، و وعُودٍ كَاذِبة! ؟..

فَكَانت الأسئِلة تَعبُرُ ليلَتَهُ الدَامِسة بِتَمَرُدٍ مُثخَنٍ ، لِتَبعَث في مَكَامِنِ القَلب هَلعٍ مُطرَزٍ بالرُعُب ،

يا صَدِيقي :

نَحنُ في وَطَنِنَا العَرَبي نَمُوت تَحتَ وَطأةِ الاستِعبَادِ مِنذُ خَمسَةِ عُقُود ، نَتَجرَع في كُلِ تَذمُرِ فَجرٍ و غِوايَةِ لِيلٍ ذُلاً مَجبُولاً بِالفَزَع الدَسم ، نُسَاقُ إلى وَظَائِفنَا و أعمَالِنَا و مَدَارسِنَا و جَامِعَاتِنَا كَمَا تُساقُ النِعاجِ المُكَبَلة إلى مَسالِخِ الهُوانِ ، نُرُوضّ على الطَاعَةِ و الخُنوعِ و العُبُودِيَةِ و القَهرِ الُممَنهج بِاسمِ الوَطَنِية المُستَذّلة ، حتى مَوائِدِ الله لم تَسلَم مِن لَعنَةِ النِفَاق ، فَتحت مَنَابِر عُلَمَاء الدِين تَعلمنَا أن نَتَذلل و نَتَبَتل إلى الله بِأن تَبقَى سُيُوفَهُم تَجُزُّ أعنَاقِنا ، علَّمُونا بأنَّ الرَبّ مُمَسَر بِإطارٍ ذَهَبي مَرّقُوش بِاسمِهِ الخَالد مَحفُور بِوَصفِهِ النَابِض بِاسمٍ عابِرٍ بالرُعبِ:

سِيادَةِ الرَبِ البَاقِي : هُبَّل ،

سَقُونَا مِن كُؤوسِ الهَوَانِ المُخزي جِرارَاً ،

لنُعَظِّمَ جَرائِمَهُم و لِنَحمِلَ أُزارَهُم على بُؤسِنا.

يا صَدِيقي:

نحن خَلفَ قُضبَانِ قومِيتِنا يَتَامَى بِكُلِ مَا تَعنِيه التَعَاسة من يُتمٍ ، فَلَقد خَسِرنا أُمُومَة التَفَوهِ بِأبجَدِيةِ الحُريَة ، و أضَعنَا أُبُوَة التَلَفُظِ بِالتَمتَمَةِ بِالدِيمُقرَاطِيةِ ، نَحنُ لا نَحفَظُ مِن حُرُوفِ الوَطَن سِوى رُبُوبِيةِ أسمَائِهِم ، و أُولُهِيةِ جَرَائِمِهِم ، و بُطُولاتِ نهبِهِم ، و إنجَازَاتِ سَرِقَاتِهِم ، نَحنُ لا نَعرِفُ مِن جُغرَافِيةِ تُرَابِنَا سِوى الأحلامِ ، نحنُ نَحلُمُ بِذلِكَ الحُلم العَرِبِي ، و لأنَّ الحُلم في وَطَنِنَا العَرَبِي جَرِيَمة ،فَإنَّ العُقُوبة تَصِلُ من الإعدَامِ السِيَاسِي إلى الاختِفَاء القَسرِي.

يا صَدِيقي:

نَحنُ أُمَة بلا شَرف ، مِنذُ أن سَمَحنَا لِفُحُولَتِهم بِفَضِ بَكَارَة كَرَامَتَنا ، و تَركنَاهُم يَعيثُونُ بأرضِنا و كَرَامَتنا و حُرِيتِنَا تَنّكِيلاً و اغتِصَابَاً ، حتى أضحَت أحَاسِيسَنا كمَشَاعِر بَغي تَلَهَثُ ورَاء فُحُولة الجِنّسِ و اللهُو .

يا صَدِيقي:

نَحنُ مغلُولِينَ بِاسمِ وطنِنَا المُصَفد ، و عُرُوبَتِنَا الُمكبَّلة ، و أديانٌ تُفَرِقُنا و تَسفِكُ دِمَائنا ، و تستَعبِدُ شَرَفَنَا العَارِي و شَهَامَتَنَا المُلوَنَة.

يا صَدِيقي:

كُل العَمائِمِ الملفُوفَة بِخِرَقِ الإيمَانِ ، و القُلُنسُواتِ المُرصَعَةِ بالصُلبَانِ ، و ربطَاتِ العُنُقِ المُخضَبَةِ بِالنَذالةِ ، و البُطُونِ الَمحشُوةِ بِغَنَائِمِ الوَطن ،

و العُيُونِ المُمَوَهَةِ بِنَظَارَاتٍ عَابِرة لمُؤتَمَراتِ الجَامِعةِ العَربِيةِ ، نُبَشّرُكَ بأنَنَا لم نَعُد نُؤمِنُ بِها.

فَوالله لو جَزَزتَ أعنَاقنا لمَا سَالت مِنها قَطرَة كَرَامة ،

لقَد لوثوا قُلُوب الشُعُوب بِالتَخلُف ، و شَتَتُوا الطَرِيق المُؤدِي إلى الله بِالمَصَالِح ، ' و قَطَعُوا أوصَالِ الإنسَانِيةِ ، و زَرَعُوا حَمِية الجَاهِلِيةِ العرجَاء ، و نَصَبُوا شِعَارَاً لدستُورِهِم كصَرحٍ ، كُتِبَ عَلِيه:

فَرِق .. تَسُد .

يا صَدِيقي:

نَحنُ و للأسَف تَجِد رُعَاعَ القُومِ مِن بَنِي جِلدَتِنَا ، قَد سِيقُوا إلى شِعَارَاتٍ لا تَبُتُ للضَميرِ بِصِلة خُوفاً على مَصَالِحِهِم ، غُثَاء كَغُثَاءِ السَيلِ يَتَرَاكَضُونُ بِلُعَابِهِم مِن مَحفَلٍ إلى مَحفَل ، يهتِفُونَ لتَمجِيدِ نازيَتِهم و مَذَابِحَهم بِلا حَيَاءٍ و لا خَجَلٍ .

يا صَدِيقي:

عِندَمَا تُقدَم فلسَفَة العَقل الحر ، على دكتَاتُورِيةِ الأديانِ ، المُخَاطَة على مَقَاسِ مَصَالِحِ مَن يَدعُونَ إليهَا ،

فَاعلَم بِأنَكَ في الوَطَنِ العَرَبِي..

و عِندَمَا يَعتَلَي المَنَاصِب ، سُفَهَاءِ الُمجتَمَعِ الرَاقِي ، و يُرمَى بالكَوادِر الجبَّارَة في نِفَايَاتِ البَطَالَة ،

فَاعلَم بِأنَكَ في الوَطَنِ العَرَبِي..

و عِندَمَا تُصبِحُ كَرَاسِي الوَطن تُورّث وِرَاثة ، لِتُوزَع على قُطَّاعِ الطُرُق ،

فَاعلَم بِأنَكَ في الوَطَنِ العَرَبِي..

عِندَمَا تَرى طُمُوح شُبَّانِنَا تَلَهَثُ خَلفَ تَأشِيرة تَرمِي بِحُلمِهِم إلى الَمهجَر ، لتُنقِذَهُ مِن لعَنَاتِ الوَطن ،

فَاعلَم بِأنَكَ في الوَطَنِ العَرَبِي..

عِندَمَا تُصبِحُ ثَروَة الوَطن وَليمَة يقتَسِمُها اللصُوص و وجهَاء الصَفَقَاتِ المَشبُوهَةِ ،

فَاعلَم بِأنَكَ في الوَطَنِ العَرَبِي..

فَفِي وَطنِنَا العَرَبي ، كُل سِهَام الأرضِ الجَائِعَة ، و رِمَاحِ السَمَاءِ الوَاسِعَة ، و سُيُوفِ الأديانِ الُمتَصَارِعَة ، و خَنَاجِر الحُرِياتِ العَاجِزة ، و لَعَنَاتِ الله عَلينَا ، و على ذُرِيَتِنَا ، إلى يوم قِيامِ السَاعَةِ يا أخَا الوَطن

16

مَاذَا نَفعَلُ عِندَ هَؤلاءِ العَرَب مِن الْمحِيطِ إِلَى الخَلِيج ؟
لَقَد أعْطُونا السَّاعَات و أَخَذوا منَّا الزَّمن ،
أعْطُونا البَرلمانَات وَ أخَذوا منَّا الحُريَّة ،
أعْطُونا العِطْر و الخَواتِم وَ أخَذُوا الحُبَّ ،
أعْطُونا الأرَاجِيح وَ أخَذوا الأعْيَاد ،
أعْطونَا الحَليبَ الْمجفَّف وَ أخَذُوا الطُّفولَة ،
أَعْطونَا السَّماد الكِيمَاوي و أَخَذوا الرَّبِيع ،
أعْطُونا الجَوامِع و الكَنائِس و أَخَذوا الإيمَان ،
أعْطُونا الحراس وَ الأقْفَال وَ أخَذوا الأَمَان ،
أعْطونَا الثُّوار وَ أخَذُوا الثَّورة.

مُحَمد المَاغوط

و كَانَ ،

عِصَام البِيطَار ،

تُحكِمُهُ رِقةُ قَلبِهِ ،

مُترَجِلة خَطَوَاتهِ في مَكَامِنِ العَتمَةِ ،

تِلكَ الدُجنة الحَالِكَةِ في غَيَاهِيبِ الأزِقَةِ العَتِيقة ،

على حَافَةِ هَوَاجِسِهِ تَظفَرُ نِصَالِ الأسئِلَةِ بِمِسَاحَاتِ أفكَارِهِ ،

تَتَرَاشَقُ على إطرَاقِهِ رِمَاحاً مِنَ دَلَالَاتِ التَعجُبِ و الاستِفهَامِ.

لِما هَذا الجَور الذي يُجحِفُ المَظلُومِينَ مِن استِردَادِ حَقِهم ! ، و هَل العَدَالة و القِسط جَرِيَمة إذا انتَشَرَت على هَذهِ الغَبرَاء ؟

فالقَضِية لا تَحتَاج لنَقتَتِل ، و تُسفَك الدِمَاء ، و تُكَبَلِ الحَنَاجِر بِالأغلَالِ ، و يُنهَج على الشُعُوب قَانُوناً للطَوَارِئ على شَاهِقَةِ هَلَعٍ مُرعِب، المَسأَلة بِحَاجَة إلى تَنَازُلات و تَعدِيلات تَعتِق الشُعُوب مِن الظُلمِ المُستَبِد إلى الانعِتَاق الرَحِب ، نَحنُ شُعُوبٌ مُهتَرئِة أتعَبَتنَا التَجَارُب السِياسِية و العَسكَرِية و الدُخَان الدِكتَاتُوري ، أصبَحنَا نَتَحرى المَحطَات لنَمتَطي أمواَجِ المُوتِ بَحثَاً عن حَياة ، بَلّ بَحثَاً عن هَواءٍ نَقِي بَعِيداً عَن ثَانِ أُكسِيدِ الظُلمِ العَرَبَي ، لَقَد قَدَمَت الشُعوبِ العَرَبِية نَفَائِسَ شُبَّانِهَا مِن أجلِ الحُريةِ و الكَرامَةِ ، و إنّ مَا تَرْجَح الكَفّة للحُرية ، لِتَجِدَ الظَلَمَة قَد رَكِبُوا مَوجَةِ الدِمَاء لَهثَاً خَلف المَنَاصِب.

يا صَدِقِي:

لو أنَّ لِشَقَائِنا لِسَان لَوَجدتَهُ أبكَم ، و لَكِن مِن نِعَمِ الله عَلينَا بأنَهُ أعطَانَا كَمِياتٍ وَفِيرةٍ مِن جُرُعَاتِ التَحُملِ و الجَلَد ، و ربِّ الكَعبَةِ لو أُعطِيَ الصَبر الذِي قَاسَينَاهُ مِن طُغيَانِ حُكَامِنا ، إلى البَهَائِمِ لانقَرَضَت.

يا صَدِقِي:

نَحنَ شُعُوب لا نُحِبُ المُوت ، شُعُوب مُسَالِمة لم تَطُلب مِن طُغَاتِها سِوى الإنِصَاف و القِسطِ و الشَفَقة .

فَلَقَد كَانَ يعتَقِد عِصَام بِأنَّ تَحت تُرَابِ دِمِشقَ ،

تَتَوارَى دِمَشق مُظلِّمَة ، هُنَاك تَحت هَذِهِ الأرض تَختَفي أرضٌ أُخرى ،تَحتَ الأزِقَة تَنّدَثِر الُمنفَرِدَات ،

و تَحت الطُرُقَات تَحتَجِبُ غُرَفُ التَحقِيق ،

و تَحت الحَدائِقِ و المُنتَزَهَات تَغفُوا السُجَون ،

و تَحت بَيوتِ الله تَمُوتُ الكَرامَةِ بِآلاتِ الاضطِهَادِ ،

و تَحت احتِضَارِ الأقبِية هُنَاكَ أصوَات لَم نَسمَع مَخَاضَها ، تُعذّب الأجسَاد ، و تُسفَك الدِمَاء ، و تُمَشَطّ العِظَامِ بآلاتٍ مِن حَدِيد ، و تُقتَلَع الحَنَاجِر ، و تُقرضّ الأطرَاف ، و تُجَرد الأبّدَان ، و تُغتَصَب الشَهامَة ، و يُسبُ الله ، فقط لأنَهُم طَالَبُوا بِحُرِيَتِهِم و كَرَامَتِهِم ، في وَطَنٍ تَغِيبُ فِيهِ الدِيمُوقرَاطِية.

يَصِلُ عِصَام ، إلى مَنزِلِه

في السَاعَة 30 : 10 ليلاً ،

بِتوقِيتِ ، دُخَانِ القَهرِ في العُوَاصِمِ العَرَبِية ،
بِتوقِيتِ ، الذُّعر المُتَسَرِب إلى مَا تَبَقى مِن نَخوّة ،
بِتوقِيتِ ، اغتِيَالاتِ الأفوَاه و الأقلَامِ بِمُسَدَسَاتٍ كَاتِمَة للضَمِير العَالَمِي ،
يَدخُل عِصَام مَنزِلَهُ بِسَمْتٍ ، و سَيدَ الَمكَان سُكُون اللِيلِ ،
و انكِفَاءِ الأنوَارِ يُعطي للقَمَر المُستَلَقِي على سَماءِ دِمَشقَ هَيبَّة ، يَلِجُ إلى حُجرَتِه مِن بَعدِ أن أنهَكَهُ الجُهد ، يُلقِي بِجِسَدِه على سَرِيره ، و على كَاهِلِهِ هُمُومَ الأمعَاءِ الخَاوِية ، التي تَجثُوا على لَحمِ بَطنِها ، بِينَ شُقُوق الَمدِينَة العَتِيقة.
نَم قَرِيرَ العَينِ يا حَبِيبِي ،
يا رَسُولاً للجِياعِ ،
يا نَبِياً للضِعاف ،
يا قِدِيساً للفُقَراء.

15 آذَار ، مَارِس عَام . 2011 : للمِيلاد ،
مِن يَومِ الجُمُعة ، كَانَت عَائِلَةُ البِيطَار ، تُقِيمُ مِرَاسِيمِ صَلاةِ الجُمُعة في جَامِعِ القَلّبَقجِية ، في سُوقِ القَلّبَقجِية ، المُتَفَرِع من سُوقِ الخَيَّاطِين إلى سُوقِ الحَرِير ، و كَانَ هذا السُوق في العَهدِ العُثّمَاني ذّائِع الصِيت بِبَيعِ الألبِسَة العَسكَرِية ، لتَقلِبَهُ كَفَّةِ الزَمَانِ لسُوقٍ مَشهُورٍ بِبَيعِ أنوَاعِ الأقمِشَةِ و الطِيّبِ و لَوَازِمِ العَرَائِس ، وَ قَد سَطَرَ التَارِيخ رَصَانَةِ هَذا الجَامِع

الذي يُعَدّ قِبْلة للطَرِيقَة الصُوفِيَة الشَاذُلِيَة ، تَحت مِحرَابِ الوَقارِ تَحتَشِدُ جُمُوعِ المُؤمِنينَ حَولَ شَيخِهِم العَلامَة الُمقّرِء الأدِيب الشَاعِر الزَاهِد شَيخِ الطَرِيقَةِ الشَاذُلِية :
شكري اللُّحَفِي.
فَلَقَد كَانَ الشَيخ لُؤلُؤة بَرَّاقَة بِالتَقوَى و التَوَاضِعِ و الزُهُدِ و الوَرَعِ و التَقَلُلِ مِن الدُنيَا ، و كَانُوا عُلمَاءِ الشَامِ و الفُقَراءِ و الضُعَفَاءِ و مَن تَوَسَدُوا بَابَ الله يَتَزَاحَمُونَ حَولَ ذَلِكَ العَالِمِ ، لِيُحيُوا مَجلِسِ الذِكرِ و الحَضرَة التي يَصفُو بِسَمَاعِ مُوَشَحَاتِهَا السَادة الدِمَشقِيينَ ، تُقّرَء البرُدَة الشَرِيفَة ، و سُورَةِ يَس ، و يُقرأ المولِدَ الشَرِيف، و تُقَامُ الحَضَرة فَعَلى مَدحِ رَسُولِ الله تَتَمَايَلُ الرُؤوسِ ، مُذعِنَة لأصوَاتِ الُمنشِدِين ، لتَسري تَحتَ أنفَاسِ الحَاضِرِينَ قَشعَرِيرة يَهتَزُّ لها الوَجد ،

و بَعدَ انتِهَاءِ مَجلِس الذِكرِ ، تَعُودُ عَائِلَةُ البِيطَارِ إلى المَنزِلِ مُحَمَلة بِوابِلٍ مِن الإيمَان و قَد أُصِيبَت جُدرَان قُلُوبِهم بِالخُشُوعِ.
و على مَائِدةِ الغَداءِ ، يَلتَفّونَ حَولَ الطَعَامِ ، و عيُونُهُم تُراقِبُ التِلفاز بِفَزَعٍ ، فَقَد استِيقَظَت بَعضِ الشُعُوبِ العَرَبِيةِ ، مُطَالِبة بِإسقَاطِ الأنظِمَة المُستَبِدة التي عَاثَت في الأرضِ فَسَاداً و جُوراً ، ك : تُونِس و مِصر.
و بَينَمَا كَانَت الأذهَان مَشدُودَة إلى الأحدَاث ، يَظهَر فَجأة على قَنَاةِ الجَزَيرَة الفَضَائِية :

خَبَرٌ عَاجِل ، مَفَادَهُ ،
انتِفَاضَةَ شَعبِية في مَدِينَةِ دَرعا جَنُوب سُوريا ، تُطالِبُ بِالحُرِية ، و ضِدَ الفَسَادِ المُنتَشِرِ في البِلادِ.
تَوَثَب والِد عِصَام مَذعُوراً ، و قَامَ صَارِخاً:
يا لَطِيف ، يا لَطِيف ، يا رَبّ سِترَك ، يا الله سِترَك ' يا رَبي دَخِيلك.
نَهَضَ عِصَام مَذهُولاً ، و قَد تَهَلل وجُهُهُ فَرَحَاً ، مُرَدِدَاَ بِصُوتٍ مُرتَفِع:
حِريّة ، حِريّة ، يا بي حِريَة.
انتَفَضَ وَالِد عِصَام غَاضِبَاً ، وَاضِعَاً يَدَهُ على فَمِ عِصَام ، مُحَاوِلاً إسكَاتَهُ ، و فَرَائِصَهُ تَهتَزُّ رُعبَاً ، قَائِلاً لهُ:
أُسكُت ، أخرَس ، لا أُرِيدَ أن أَسمَع مِنكَ أَيَةَ كَلِمَة ،
أَغضَبُ عَلَيكَ إذَا اسمَعُ مِنكَ أَيَة شَيءٍ أو أَيَة تَصرُفٍ
صُدِمَ عِصَام مِن تَصرُفِ وَالِدِهِ بِهَذِهِ الطَرِيقَةِ ،
حَيثُ أَنَهُ أَوَلَ مَرَة يَصرُخُ في وَجهِهِ ،
لَقَد صَمَتَ عِصَام كَبَقِيةِ الأفوَاه المُكَبَلَةِ في البِلادِ ،
لَقَد ولِدَ رَعِيل الأقويَاء ، فَلم يَبقَ مَكانٍ للجُبَنَاءِ ،
و بَعدَ عِشرِينَ دَقِيقَة ،
خَبَرٌ طَازجٌ يَقطِرُ دَمَاً زُلَالاً ، يعبُرُ العُيونَ بِصَمتٍ مُخجِلٍ ،
خَبر عَاجِل:
سُقُوطِ أوَل قَتِيلِين في مَدِينَةِ دَرعَا ،

مَحمُود جَوابّرة ، حُسَام عيَّاش ،

إنَهَا نَشرَاتِ الأخبَارِ السَاخِنَةِ المُخَثّرَةِ بِالدَمِ الحَلالِ ،

لَقَد طَفَحَ قَهَر الشَعب ، بَعدَ أنّ اعتقَلت الحُكُومَة السُوريَة خَمسَة عَشَر طِفلاً ، قَد كَتَبُوا على جُدرَان مَدرَسَتِهِم شِعَارَاتٍ بِإسقَاطِ النِظامِ و مُطَالِبَة بِالحُريَة ،

بِتَارِيخ 26 فبرَاير من عَامِ 2011 : ،

حَيثُ قَامَت مُخَابَرات حِزبِ البَّعثِ العَربّي الاشتِرَاكِي ، التي تحكُم البِلاد مِنّذُ أربَعَةِ عُقُودٍ مِنَ الزَمَن ، بِتَعذِيبِهِم و اقتِلاعِ أظَافِرِهِم و تَشوِيهِ أجسَادِهِم ، لِتَندَلِعَ المُظَاهرَات و الاحتِجَاجَات ضدِ سِياسَةِ القَمّعِ و الاستِبدَادِ و كَبّتِ الحُرِياتِ ، مُطَالِبِينَ بِإسقَاطِ نِظَامِ حِزبِ البَعثِ و رَحِيلِ الطَاغِيةِ المُجرِم :

بَشارِ الأسدِ ،

لِتَشتَعِلَ البِلادِ ، هَاتِفة و مُشِيّعة للشُهَداءِ ،

أنُهُ زَمَنُ الجُثَثِ ، و زَمَنُ الدِمَاءِ المُلتَهِبَةِ ، و زَمَنُ الحُرية ، و زَمَنُ الشُهَداءِ ، و زَمَنُ سُقُوط الأقنِعَة ، و زَمَنُ التَضحِية ، و زَمَنُ الحَنَاجِر المُدَوِيَة ، و زَمَنُ اليَتَامَى ، و زَمَنُ الأرَامِل ، و زَمَنُ الجِرَاح ، و زَمَنُ النَفِي و التَهجِير و اللُجُوء ، فَإنَنَا و للأسَفِ الشَدِيدِ ، ولِدنَا في زَمَنٍ ، يَتيم بِلا ضَمِير و لا شَفَقَة و لا رَحمَة.

17

اليَوم يَوم مَصارِع الشُّهداءِ ،
فَهَل في جَوانِبِهِ رَشاش دِمَاء ،
لله غِياب حُضورٍ في النُهَى ،
مَاتُوا فَباتُوا أخْلَد الأحْيَاء ،

جُبْران خَلِيل جُبْران

و كَانَ ،

عَصَام البِيطَار ،

يَتَصفح العَنَاوِين التي تَقطُرُ دَمَاً مُتقِداً ،

يَتَحرى تَنَبُؤاتِ طُقُوسِ التَواصُل الاجتِمَاعِ ،

الُمجَاهِرة بتَحرِيضِ مُوتَى القُلُوبِ ، بالنُشُورِ من قُبُورِ صَمتِهِم ،

عَبرَ عَنَاوِين مُبرَمَة بِرائِحَةِ الانعِتَاق من قَوانِينِ الاسترِقَاقِ ، التي تَخنِق البِلاد مِنذُ أربَعَةِ عُقُود ، و عَنَاوِين تَرتَطِمُ ذُلاً كَتَسَاقُطِ الأقنِعَةِ الدِكتَاتُورِية التي سَاقَت الأفوَاه المُتَحَرِرة إلى الأقبِية التَعسُفِية ، و عَنَاوين تَهتُفُ صَخَبَاً ، تُدُوي كَجلجَلَةِ الرَعد عَابِرةً بِرُعبِها طُرُقَاتٍ تُواقَة لِصَدى الحَقِ ، و عَنَاوِين ضَبَابِية سَودَاوية تَدعُو لإخمَادِ المُؤَامَرة الكُونِية التي تَلتَهِم طُغَاةِ الوَطن ،

خَونَة!!!

ربَاه ،

هل اندَثَرَ زَمَنُ الشُرَفَاء ، و أقبَلَ زَمَنُ الخُوَنَة! ؟ ..

مَن الذي عَقَدَ صَفقَة مُقَايَضَة للاحتِلالِ الإسرَائِيلي تَحت الطَاوِلاتِ المُخضَبَةِ بِالحِيَل و الخِدَاعِ و المَكِيدَة ، لِبِيعِ هَضَبَةِ الجُولانِ على أن يَبقى اسمَهُ كالسُمِ المَدسُوسِ في شَرَابِينِ الوَطن في 6 أكتُوبَر مِن عَامِ 1973 ..!؟

مَن الذي طوَقَ مَدِينَة حَمَاة سَبعَة و عِشرينَ يوماً ،

في 2 : فِبرَاير مِن عَامِ 1982 ،
هُنَاكَ على مَخَاضِ الوَطن ، حُشِدَت سَرَايا الدِفَاع ،
و لِواءِ 47 : للدَبَابَات ،
و لِواءِ 21 : لِلمَكَنِيك ،
و الفُوجِ 21 : لِلقُواتِ الخَاصَة ،
فَضلاً عَن مَجمُوعَاتِ القَمعِ المُخَابَرَاتِيه ، التي سَفَكَت أكثَرِ مِن أربَعِين ألفِ شَهِيد ، خوفَاً على أروَاحِهِم و مِن خَشية فَقدِ مَنَاصِبهُم! . ؟

مَنِ الذي جَرّدَ الأكرَاد مِن قومِيتَهم الوَطَنية في الشَمَال السُورِي و عَاثَ في ضَعفِهِم قتَلاً و تَعذِيبَاً و نَفياً و تَنّكِيلاً و تَهجِيراً ، في12 : مَارِس مِن عَامِ 2004 : ،
بِحُجَةِ بَقَاءِ حَرَائِقهم التِي اِلتَهَمَت شَعباً يَحلُمُ بِالكَرَامَة! .. ؟

مَن الذِي رَفَعَ قَانُونَ الطَوَارِئ في :
22 دِيسَمبَر مِن عَامِ 1962 : ،
لِنَشلِ و شَلّ مُحَرِكَ الوَطَن ، بِقَلبٍ بَارِدٍ على مَرأى المُجتَمَعِ العَالَمِي ، الذِي صَوّتَ على جَرائِمهِ بِأنهُ قَائِد مِثَالي!.. ؟

هَل الصُدُور العَارِية ، التي انبَجَسَت مِن بُيُوتِ الله ، مُجَاهِرَة بِكَسرِ إكسِيرِ هَلَعِهَا لِسُقُوط طَاغِية أضحَت خائنة! .. ؟

هَلِ الحَنَاجِر الهَزِيلَة التي كَانَت تَهتُف لِتَمجِيدِ و التَألِيهِ رَبِّ الوَطَنِ ، تَقَعُ اليَوم مُتَهَمة تَحت أصَابِعِ الخِيانَة ، فَقَط لأنَهَا طَالَبَت بِحُرِيَتِها! .. ؟

هل الأكُفَّ التي صَفَقَت بِالأمسِ رُعبَاً مِن فِرعُون الوَطَن ، أضحَت خَائِنَة ، فَقَط لأنَهَا رَفَعت أكُفَهَا اليَوم دَاعِية عَلِيهِ بِالهَلاكِ! .. ؟

هَلِ السُيُول البَشَرِية التي تَجُوبُ شَوَارِعَ الوَطَن اليُوم ، أصبَحَت مُتَآمِرَة على هُبَّل ، أم هُبَّل مَن تَآمرَ على هَذَهِ الشُعُوب الخَائِنَةِ كَمَا يَدّعي! .. ؟

فَكَانَ

عِصَام يَرَى وَطَنَهُ اليُوم ،

خَبَراً عَاجِلاً تَتَرَصَدهُ أنظَار العَالَم بِأسرِهِ ، و تَتَرَقَبَهُ في كُلِ لَمحَةٍ و لَحظَةٍ ، فكَيّفَ بِهِ يَغرَقُ في مُستَنقَعِ الدِماءِ الطَاهِرة ،

أُقسِمُ عَليكَ أيُهَا الوَطَن كَم مِن مَجزرَة و كَم مِن غَارة و كَم مِن شَهِيدٍ لِتُشفَى مِن الاستِبدَاد و الاستِعبَادِ ! .. ؟

فَلَقَد انخَرَطَ عِصَام في الكِفَاحِ النِظَالي و العَمَلِ الثُوّري في تَجَمُعٍ سِريّ مع شُبَّانٍ جَامِعِيونَ ، مِن مُحَافظَاتٍ سُورِية مُختَلِفَة ، قَد انتَفَضَت فِيها الشَعُوب للمُطَالَبة بِكَرَامَتِها مثل : دَرعَا و حُمص و بَانيَاس و القَامِشلي و أدلِب و حَمَاة ، هَدَفَهُم تَحرِيرِ البِلادِ مِن آلةِ القَمعِ التِي تَحصُدُ أروَاحَ الشَعبِ الأعزَل منذُ أربَعِين عَاماً ،

فَكَانَ عِصَام ،
يَجمَع المَال مِن تُجَارِ دِمَشقَ سِراً ، و يُرسِلُهَا إلى المُدُنِ المُتَضَرِرة لُمسَانَدَةِ الُمصَابِينَ في الُمشَافِّي المَيدَانِيةِ ،
و مِن تَرَاكُمِ المَهَامِ المَاليّةِ على كَاهِلِه ، كَان لا يَأّوي إلى مَنزِلِهِ إلا مَرةٍ وَاحِدة في كُلِ أسبُوعٍ ، فَلَقد كَانَ يَتَنَقل في رِيفِ دِمَشقَ بِين : دُومَا و الزَبَدَانِي ، حَامِلاً رُوحَهُ على كَتِفه لِخدمَةِ الثُوّار.

6 أكْتُوبَر مِن عَامِ 2011 : ، مِن لَيلَة الخَمِيس ،
السَاعَة 00 : 01 ،
في مُنتَصَفِ الليلِ ،
بِتُوقِيتِ الكَرَامَةِ التي خَرَجَت مِن صَمتِها ،
بِتوقِيتِ الحُرِيةِ المُنتَزَعَةِ في وَطَنِنَا المُستَعِرِ سَخَطاً ،
بِتوقِيتِ التَخَاذُلِ الدُوَلي لنُصرَةِ الشُعُوبِ المُصَفَدة ،
نَعُود مَعاً إلى مَنزِلِهِ في الشَاغُور مِن بَعدِ أنّ أَعيَانا الإرهَاق ،
تَنتَظِرَهُ والدَتَهُ على جَمرٍ مِن الذُّعِر ، نَدخُلُ مَعَاً فَنَاء البِيت ، يُبَاغِتُهَا بالعِنَاق و التَقبِيل ، و دُمُوعُها تَتَصّبَبُ خوفَاً عَليهِ ، قَائِلةً لهُ:
الله يرضَى عَليك يا حَبِيب رُوحِي يَا مو..
يَنظُرُ إليهَا ، و كَأنَهَا نَظَرَات وَدَاعٍ ، مُخرِجاً مِن جَيبِهِ ، ظَرفاً مُحكَمِ الإغلاقِ ، قَد كُتِبَ على بَيَاضِهَا:

وَصِيةِ.

الفَقِير إلى رَحمَةِ الله تعالى : عِصَام البِيطَار..

قَائِلاً لِامُهِ بِكَمَدٍ:

إذَا الله أخَذَ هَذِهِ الرُوح يا أُمَاه ، وَصِيَتي بَينَ يَدَيكِ يا حَبِيبَة فُؤَادِي..

نَصعَدُ إلى حُجرَتِهِ ، يُخرِجُ جِهَازَهُ المَحمُول : الآبتُوبّ.

يَتَصفَحُ مَوَاقِعَ الفَيّسبُوك ، بَاحِثَاً عن آخِرَ هَزَّةٍ ثُورِيَةٍ نَشَبَت في البِلاد ، يَضَعُ الأغُنِية الُمفَضَلة لَهُ ،

للمُنَاظِل : سَمِيّح شّقِير.

بِعِنوَانِ : رِجعِ الخَي .. تَتَعَالى الأُغنَّية بِكَلِمَاتِهَا:

رِجعِ الخَي..

يا عَين لا تِدمَعِي..

فُوق كِتَاف .. رِفقَاتُو و مِحِبينُو..

رِجعِ الخَي .. يا يُمّه زَغِردِيلُو..

لم تَتَمَاسَك الدُمُوع في الآمَاقِ لِتَسِيل على خَدّيهِ ،

سِيلي يا دُمُوع على الخُدُود..

فَهَل مِن سَبِيلٍ لِفَكِ القُيُود..

أنَهَا مِن المَشَاهِد التي اقشَعَر لَهَا بَدَنِي ،

قُلتُ لَهُ بِصُوتٍ مُغَلَفٍ بالتَحَسُّرِ:

تَبكِي يا عِصَام !!! ...

نَظَرَ إليَّ و وجهُهُ مُخَضبٌ بِالدُمُوع ، و بِصوتٍ أجهَشَهُ الأنِين رَادّاً عَليّ:

يَا زُهِير ،أبكِي على الدِمَاء ، أبكِي على نَفسِي ، أبكِي على أن أفقِدَكَ ، أو أن تفقِدَني ،

استَأنَفَ حَدِيثَهُ مُلَملِماً شَتَاتَ حُزنِهِ بِابتِسَامَة ، قَائِلاً لي:

غَدَاً 7 أُكتُوبَر ، تِشرِين الأوَل ،

جُمعَة الَمجلِسِ الوَطَنِي يُمثِّلُنِي ،

و سوفَ نَكُونُ مُتَوَاجِدِين في الجَامِعِ الأمَوي ،

لَقَد سَمِعت بِأنَّ الذي سَيُلقِي خطَبَةِ الجُمُعةِ ،

مُدِيرِ أُوقَافِ دِمَشقَ ، ذَلِكَ الشَيّخ الخَبِيثِ :

سَامِر قَباني ،

فَلا بُدّ أنّ نَفعَلَ شَيئاً لِنُخرِسَ هَذا القَزَم المُنَافِحِ عَن الظُلمِ و الاستِبدَادِ..

و قَد اتَفَقنَا ، بأن نَجتَمِعَ في الجَامِعَ الأمَوي و بِرِفقَتِنا شُبَّانٌ قَد قَدِمُوا مِن مَنَاطِقَ شَتَا مِن دِمَشقَ و ضَوَاحِيهَا ، و نَصدّحَ في رِحَابِ الأمَوي بِالحُرِيةِ و الكَرَامَة ، التي لم نُشفَى مِن ضَرَائبها حَتى يُومِنَا هَذا ..

يَستَلقي عِصَام بِأحلَامِهِ التي تَنّبِضُ أمَلاً بِوَطَنٍ حُرٍ ،

تغفوا عَينَاهُ على وِسَادَةِ أُمنِياتِهِ كَطِفلٍ بَرِيءٍ ، لِتَصفُو تِلكَ الليلة بِهِ ، لتَحتَفِي بِنَقَاءِ طُهرِهِ ، لِتَبتَهِج بِصَفَاءِ بَقَائِهِ ،

فَلم أستَطِع النُوم تِلكَ الليلةِ ، فَكُنتُ أُرَصِدُ تَقلُبَاتَهُ ، و كَأنَّ شَيئاً في قَعرِ أنفَاسِي يَهتَزُّ رُعباً و هَلَعاً ، و كَانَتِ الأصوَات الصَاخِبة التي تَعصِفُ في قَلبي تَقُولُ مَذّعُورة:

هُنَاكَ شِيءٌ سَيحدُث..

رَبَّاه كَم أنَا خَائِف ، رَبَاهُ أقفِل أبوَابَ فَزَعِي.

18

اسمَحُ لي بِأن أمُرَّ بِبَابِك ؟
أتَقبَلنِي لحظَة في رِحَابِك ؟
لِألثم حَيْث هوى السَّيْف ، أَقْتبسُ بَعْضَ الشَّجَاعة لأَقْرأ بَيْن يَدَيك اعتِذَارِي ،
لِأشْعر لَو لَحظَة أنَّنِي آدمِي ،
وَ إنّي بِظِلّك صُرتُ الشُّجَاع ،
فَإنّي جَبانٌ تَخلَّيتُ عَنْكَ غداةِ الوَدَاع ،
تَركْتُكَ لِلموتِ ،
لِلقَاتِلين الجيَاع ،

عَبْد العَزِيز المقَالح

و كَانَ ،

عِصَام ،

يُشبِهُ دِمَشقَ ،

و كُنتُ أَرَى بِأنَّ دِمَشقَ تُشبِهَهُ ،

يُحيّي مَا كَانَ عَلِيهِ مِن مِيثَاقٍ في كُلِ بُرهَةِ فَجرٍ ،

حَامِلاً حَياءهُ بِكَفِ قَلبِهِ ، حَافِياً ذَلِكَ القَلب يَحبُوا إلى البُطُونِ المَكسُوةِ بِالبُؤس ، عَارِية تِلكَ النَفّس تَسعَى على نَقَائِهَا مُتَحَسِسَة لُوعَةَ الفُقَراءِ ، مُتَجَرِدَة تِلكَ الرُوح تَحتَكِرُها عِصمَة قُدسِية كَعِفَة الأنبِياءِ ، مُصَانَة تِلكَ الجَوَارِح في مُصَاغِ اليَاسَمين ، شَهِية تِلكَ المَشَاعِر الخَالِيةِ من الُمجُونِ ، كَلُبَابِ الفِضَة الذِي يَنتَشِلُ الأبصَار ، مَحمُومَة تِلكَ العَزَائِم التي يُطوِقُها وضُوحٍ مَنِيعَة ، رَبَّاهُ ، أيَّة نَفسٍ هَذِهِ التي تَسطُعُ انشِرَاحاً و بِشّراً عِندَ إبصَارُكَ لتَألُقِهِ .. !

الساعة 00: 11 ،

بِتوقِيتِ ، الله جَل جَلَالهُ ،

بِتوقِيتِ ، إذَا نُودِيَ للصَلاةِ مِن يُومِ الجُمُعَة فَاسعوا إلى ذِكرِ الله ، بِتوقِيتِ تَمجِيدِ الخَالقِ على الخَلائِقِ ، بِتوقِيتِ تَنزِيهِ الذَاتِ الرَبَانِيةِ في حَضرَتِهِ القُدسِيةِ .

يُوَدِعُ أبَوَيهِ بِحَفَاوَةِ الرِضَى ، و نَتَجِهُ مَعَاً إلى جَامِعِ بَنِي أُمَيَةِ الكَبِير لادَآءِ فَرِيضَةِ صَلاةِ الجُمَعَةِ ، و قَبلَ دُخُولِنَا إلى الجَامِع بِعَشرِ دَقَائِقَ

اتَفَقنَا على نِقَاطٍ مُعَيَنةَ حِفَاظَاً على سَلامَتَنا ، فإذَا جَرَى في أثنَاء المُظَاهَرةِ اقتِحَام مِن قِبَلِ عِصَابَات النِظَام لِلجَامِعِ ، أو حَصَلَ هَلع أو ضوضَاء بِأنّ نَشُد فِراراً خَارِجَ الجَامِع ، هُوَ يأخذ البَابَ الخَلفِي للمَسجِد،

مِن زُقَاقِ مَقَامِ الُمجَاهِدِ الُمظَفَرِ :

صَلاحِ الدِين الأيُّوبِي .

الُمتَوفى : 589 هِجرِي ، 1183 مِيلادِي ،

و أنَا أهرُبُ من البَوَابَةِ الغَربِيةِ ، المُطِلَة على سُوقِ الحَمِيدِيَةِ الذِي بَنَاه:

السُلطَانِ عَبدِ الحَمِيد الأوَلِ .

في عَامِ : 1780 مِيلادِي ،

و أن نَلتَقِي في مَسجِدِ : القَلّبَقجِية ،لِنَحضُرَ مَجلِسَ الصَلاةِ على النَبِي الذي يُقِيمُونَهُ السَادةِ الصُوفِيةِ ،

و بَعدَ أن اتَفَقنَا ، ضَمَنِي بِحَرَارَة ، مُعتَصِراً مِنَ العَينِ دَمعَةٍ يَتِيمَة مُنَمّنَة على شَابِهَةِ وَداع ، دَخَلنَا مِن البَوابَة القِبّلِيةِ لِلجَامِعِ ، على يَسَارِكَ و في لَحظَةِ تَخطِيكِ الأعتَابِ الأُمَوِية ، يَتَرَبعُ في مَكتَبٍ شَهِيٍ بالكُتِبِ ، العَلامَةِ الُمقّرِء شَيخِ الَمذّهَبِ الحَنَفِي و شِيخِ القُراءِ :

عبدُ الرَزاقِ الحَلبي ،

فَلَقَد كَانَ يَتَلعلَع مِن وَجهِ الشَيّخ النُور ، مِن صَفَحَاتِ حَياتِهِ التي أحرَقَهَا في العِلمِ الشَرِيف ،

يدخُلُ عِصَام بِرَهبَة إلى الشَيّخِ ، مُنحَنِياً و مُقبّلاً يَّدَهُ ، و طَالِباً مِنهُ الدُعَاء ، يُوَّدِع الشَيخ بِقُبّلة على رأسِهِ ، تَارِكَاً خَلفَهُ هَالةٍ مُتَقِدة بِالإيمَانِ ، نَسِيرُ مَعاً حَتى نَصِلَّ إلى المَنَصة التي تَحجِبُهَا قُبَّةِ النَسرِ ، أمَامَ المِنَصَةِ يَتَرَجَّلُ المِنّبَر الأمَوي العَتِيق ، نَقِفُ بِخُشُوعٍ لِنُصَلي رَكعَتِن تَحيّةِ المَسجِدِ ، يَتَسَرَبُ المُصلُونَ مِن كَافَةِ الأبوَابِ كَأسرَابِ النَحّلِ ،لِتَحتَشِد الصُفُوف بِالمُصَلينَ ، و لِيَعلوا صَوتَ الأذَانِ مُعلِنَاً بِدايَةِ مَرَاسِمِ صَلاةِ الجُمُعَةِ ، فَبِانتِهَاءِ المُؤذِّنِينَ مِن رَفعِ صُوتِ الحَقّ ، يَصعَدُ إمَامِ الجَامِعِ الأمَوي إلى المِنبَرِ ، و قَدّ كُلِفَ مُديرِ أوقَافِ دِمَشقَ :

سَامِر قَبَانَي ،

أحَدِ كِبَارِ مُنَافِقِينَ رِجَالِ الدِين ، بِأنّ يَخطُبَ بِالنَاسِ و يُرشِدَهُم ، تَتَخطَى قَدَمَاهُ سُلَّمِ المِنبَرِي الأمَوي ، حَامِلاً بِيَمِينِه النَجِسةِ السَيفَ الأمَويّ ، كَمَا جَرتِ العَادَة المُتَوَارثة بِينَ خُطَبَاءِ الجَامِعِ الأمَوي ، يَبّتَدِءُ خُطبَةَ الجُمُعَةِ ، حَامِداً لله ، و مُثنِياً عَلِيهِ ،

مُنخَرِطَاً بِمُوضُوعِ الفِتنَةِ المُندَلِعَةِ في البِلادِ ،

مُحَرِضَاً مِيلِشيَاتِ النِظَامِ السُورِي بِإحرَاقِ كُلِ مَن يَقِف في طَرِيقِهِم ، مُتَهِمَاً الُمتَظَاهِرِينَ السِلمِيين بِالخُونَة و العُمَلاء ،

و لَم يَبتَلِع لِسَانَهُ القَذِر و حَسب ! ..

حَتى يَنتَهِكَ حُرمَةَ الأموَاتِ ، وَاصِفَاً الشُهَداءِ الذِين طَالَبُوا بِكَرَامَتِهُم بِأنَهُم في جَهَنَم مُشَكَكَاً بِنَوَاياهُم .

يَا صَدِيقي :

للأسَف هَكَذَا جُلّ رِجَالِ الدِينِ في بِلادِ الشَامِ ، مَأجُورِينَ للمَنَاصِبِ و المَالِ ، أين تَجِدِ الطُغَاةِ تَجِدَهُم حولَهُم ، لَهُم ألسِنَة تُخرِجُ الأفعَى مِن جُحرِهَا ، النِفَاقُ دَيدَنَهُم ، و الكَذبُ قِبلَتَهُم ، و المَكّرُ عَقِيدَتَهُم ، مِن أقوى أنوَاعِ الخِطَابَاتِ التَخدِيريةِ تَجِدُهُا عِندَ رِجالِ الدِينِ ، يُثنُونَ على القَتَلَةِ و يُمَجِدونَ المُجرِمِينَ و يَدعُونَ لَهُم بِبَقَاءِ سُيُوفِهِم تُمَزِقُ حُرِيّتِنَا و تَنتَهِكُ كَرَامَتَنا ، فَتَبَاً لَهُم ، كُلَمَا دَاسَتّ أقَدَامَهُم المَاكِرة بَلَاطِ سُلطَانِهِم .

فَلَم يَتَمَالَك عِصَام سَمَاعِ شَلَالِ السَبِ و الشَتَمِ الذِي يَخرُجُ مِن فَمِ مُدِيرِ الأوقَافِ ، كُنّتُ أنظُرُ إليهِ كيف يَتَصبَبُ عَرَقَاً و يَتَغَير وَجهُهُ إلى الحُمّرةِ و الغَضَبَ يَتَسِعُ في أُوجَادِهِ ، و مُدِيرِ الأوقَافِ يَصُبّ فُوقَ النَارِ زِيّتَاً مَسمُومَاً ، و يَصرُخُ قَائِلاً :

أيُهَا الُمؤمِنُونَ ، إنَنَا نَشِدُّ على حُمَاةِ الوَطنِ ، بِأن يُنَكِلوا فِيهِم ، و يقتُلُونَهُم شّرّ قِتلَة ...

فَوَثَبَّ عِصَام على قَدَمَهِ غَاضِباً ، و مَلَامِحَهُ تَضطَرِمُ نَارَاً مُوقَدَة ، رَافِعَاً يَدِيهِ ، هَاتِفَاً بِأعلّى صُوتِهِ :

حُرِّية .. حُرِّية .. حُرِّية .. و بِلّي بِيُقتِل شَعبّوا خاين .

فَنَهَض الثُّوار و جُزء مِن المُصَلِينَ يهتُفُونَ بِنَفس الشِعَارَاتِ ، ارتَجَّ المَسجِدُ فَرَحاً بِأصواتِ الحُرّيةِ ، مِمَا أدَى ذَلِك ، لغِضَبِ مُدِيرِ الأوقَافِ ، بِأن يَصرُخ عَبرَ مُكَبِراتِ الصوتِ مَذّعُوراً :

وَين الأمِن .. ! .. يَا مُخَابَرَات .. يَا شُرطة .. !

يَا صَدِيقِي :

دَع قَلَمِي يشتُمُهُم ، فَتَباً لهُ و لِمَن أرضَعَهُ مِن ثَديي النِفَاق ، يُرِيد أن يَستَجِيرُ بِالقَتَلة ، أنَهُم هَؤُلاءِ مَن أوصَلَ البِلاد إلى الحَضِيضِ ، بِخِطَبَاتِهِم المُمتَلِئةِ حِقداً و بُغضاً و إرهَاباً ، لقَد زَرَعوا في عَقَائِد الخَلائِقِ بِأنَّ السُلطَانِ رَباً لُهُم ، و أنَهُ مُطعِمهُم و حَامِياً لَهُم ، و بِالحَقِيقَةِ لِصاً لِكَرَامَتِنَا و حُرِيَّتِنَا .

لم يَمضِ وَقتاً طَوِيلاً حَتى دَاهَمت عِصَابَاتِ المُخَابَرَاتِ أبوَابَ الأُمَوي ، يُلاحِقُونَ المُتَظَاهِرِينَ بِسِلاحِهِم المُحَرَم دُوَلِيّاً ،

ففَرَرتُ أَنَا مِنَ البَوَابَةِ الغَربِيَّةِ ، المُطِلةِ على سُوقِ الحَميدية ، و عيني تَتَرَصَدهُ مِن بَعِيد هَارِباً نَحو البَوَابةِ الشمَالية يَجرِي بِفَزَعٍ و وَجهُهُ مُحمَرٌ مِن الرُعبِ ، و مِلِيشيَاتِ الُمخَابَرات تُلاحِقَهُ بِسِلاحِهِم الذي كَانَ رَمزاً لِحِمَايَةِ الوَطَنِ ، و اليوم أَضحَى فَزَاعَة لِتَصفِيَةِ أهلِ الوَطَن ، استَمَرَ عِصَام بِالجَري إلى البَوَابَةِ الشمَالِية ، و مِمَا أدّى إلى دُخُولِ عَنَاصِر مِنَ المُخَابَرَات مِن تِلكَ البَوَابَةِ بِكَافَةِ عَتَادِهِم الإجرَامِيّ ،

فَأسرَعَ جَارِياً إلى مَقَامِ الإمَامِ الحُسَينِ في الزَاوِية الشَرقِيةِ الشمَالِية لِصَحنِ المَسجِدِ .

رَفَعُوا السِلاح على ظَهرِهِ ، و فَتَحُوا زَخَاتِ نِيرَانِهِم عَليهِ ، فَلَقَد وَصَلَ صَدَى صوتِ الرَصَاصِ إلى كُلِ بِيتٍ دِمَشّقِي ، حتى اغبرت سَمَاء دِمَشق بِالحَمَامِ الأبيَضِ مَذُعُورة مِنَ الرُعبِ الذي دَوى في أرجَاءِ الشَام،

سَقَطَ عِصَام على أعتَابِ مَقَامِ ، أبَا الَمظَالِيمِ :

أبو عبد الله الحُسَين بِن عَلِي ، كَرَمَ اللهُ وَجهَهُ

مُرتَطِماً بِالبُوابَةِ النُحَاسِيَّةِ ،

حتى تَنَاثَرَت دِمَاؤهُ على جُدرَانِ الَمقَامِ الشَرِيفِ ،

لِيَقَعَ مُبتَسِماً كَالياسَمِين ،

شَاخِصاً بِبَصَرِهِ إلى مَشهَدِ الحُسَين ،

أرَادَ اللهُ لَهُ خَاتِمَة كَشَذا المِسك ، كَنِهَايَاتِ أولِيَاءِ الله الصَالِحِين ، أرَادَهُ اللهُ شَرِيكاً و مَظلُوماً في رِحَابِ الإمَامِ : الحسين ،

تَضَمَّخَ جَسَدهُ بِالدِمَاءِ الدَافِئةِ ، لِتَسِيلَ دِمَاءهُ على رُخَامِ المَقَامِ مُعلِنَةً شَهَادَتَها ، مِن بَعدِ أن فَاضَت رُوحهُ النَقِيةِ إلى رَحمَةِ الله كَقَطرَةِ سقَاءٍ .

ارتَقَى عِصَام شَهِيداً ، ارتَقَت دِمَشق مَعَهُ شَهِيدَة ،

يا أبَا الفُقَرَاءِ ، إلى أينَ أنتَ راحِل .. !

يا أبَا الضُعَفاءِ ، لِمَن تَركتَنَا .. !

يا أبَا الَمسَاكين ، هل أعجَبَكَ وَدَاعَنَا .. !
يا أبَا الدَرَاويش ، مَن سَيُطعِمُنَا خُبزنَا .. !
يا أبَا الَمجَانِين ، في أي زُقَاقٍ سَنَلتَقِيكَ .. !

لَقَد ابتَلَعتُ معَ لُعَابِ رِيقِي رُعباً مُبكِياً مِن ذَلِكَ المَشهَدِ الذِي مَزَقَ أشلاءَ قَلبِي ، و دُمُوعِي تُحَرِضُنِي على فَضِ جَلجَلة أَلمي ، لُأخرِجَ عَوِيلَ الكون مِن جوفِي .
و بَعدَ أن تَأكَدوا مِن خُرُوجِ رُوحِهِ ،
سَحَبُوهُ مِن قَدَمَيهِ إلى السَيّارَةِ العَسكَرِية المَاكِثَةِ أمَامِ بَوَابَةِ المَسجِدِ ، و دِمَاؤهُ الطَاهِرة تَتَدَفَقُ مِن ثُقوبِ جَسَدِهِ المُهَشَمَةِ بِالرَصَاصِ الحَيّ ، لِتروي بَاحَةَ الحَرمِ كَمَا تَسقي الغُيومُ الأرضَ المُلتَوِيَةَ عَطَشاً ، لم أتَمَالَك نَفسِي مِن هَولِ مَا رَأيت ، هَرَعتُ مُسرِعاً إلى مَسجِدِ : القَلبَقجِية ، و دُمُوعِي تَسِيحُ فَزَعاً ، لم أصِل إلى بَوابَة القَلبَقجِية ، حتى لَمَحتُ وَالِدي عِصَام و قَد خَرَجُوا مِن بَوَابَة المَسجِد ، فَعِندَمَا شَاهَدَ مَلامِحَ وَجهِي مُغبرة بالخوف ، أمسَكَ بِتَلابِيبِ خِنَاقِي ، و الفَزَع قَد أنَاخَ بِقِواهُ ، و جُمُوع غَفِيرة مِن الرِجالِ و النِساء يَنظُرُون إلينَا ،
وَجَّهَ إليَّ سُؤَالاً :
شُو في يا ابنِي .. ! عِصَام صَابُوا شي .. ! اعتَقَلُوه شي .. !

تَرَاكَمَ الوجَعُ في أنفَاسِي المُختَنِقَة ، و تَفَاقَمَت الدُمُوعُ على خَدَيّ ، أطرَقتُ رَأسِي أسفاً ، و بِصوتٍ مَحشُو بِالوَجَعِ قُلتُ لَهُ :

يا عَمّي ، عِصَام استَشهَد ، مَبرُوك عَلِيهِ الشَهَادة .

فَعِندَمَا سَمِعَت النِسَاء الخَبر ، كَشَفنَ عَن وجُوهِهِنَّ الُمخَمّرَةِ بِالملايَات ، مُدَويات بِالزَغَارِيدِ عَنَان السَمَاء ، لم يَستَطِع وَالِد عِصَام ابتِلاعِ الصَدمَة ، لِيحمِلوهُ على أكتَافِ الرِجَالِ مُتَهَاذِياً إلى مَنزِلِهِ ،

و لو رَأيتَ الأزِقَةَ الدِمَشقِية الُمزدَحِمَة بالبَشَر لقُلتَ من هَلَعِ الجُمُوع بأنَنَا في يومِ القِيَامَة ، فَبَعدَ أن رُفِعَ أذَانِ العَصرِ على حَسَبِ التُوقِيتِ الَمحلِي لِفَجَائِع القُلوبِ النَائِحَةِ ، صَعَدَ الُمؤذِن رَافِعاً صوتَهُ ، عَبر مُكَبِراتِ الصوتِ الثَابِتَةِ على مئذَنةِ جَامِع : اليَاغُوشِية الشَاغُورِي .

سُبحَانَ الحَيِّ الذِي لا يَمُوت ..

سُبحَانَ الحَيِّ الذِي لا يَمُوت ..

انتَقَلَ إلى رَحمَةِ الله و كَرَمِهِ و عَفوهِ ..

الشَّاب البطَل الشَهِيد ابنِ الشَام :

عِصَام البِيطَار ..

رَحِمَهُ الله تَعَالى .

يا حَبِيبِي ،
مَاذَا سَأَقُولُ لليَاسَمِين الْمتَأرجِحُ على بُعدك .. !
بِمَاذَا سَأُخبِرُ المَسَاكِينَ ، عن رَحِيلِكَ .. !
بِأيِّ حَدِيثٍ سَأهمُسُ لِمَن أحَبَكَ عن اغتِرَابُكَ .. ! ،
يَا حَامِلَ الخُبزِ على كَتِفَيكَ ، مَن سَيَحمِلُ حُزنَ قَلبِي على فِرَاقِكَ.. !
يا جَابِرَ القُلُوبِ الْمنّكَسِرَة ، مَن سَيُرَمِمَ كَسرَ قَلبِي .. !
يا مُدرِكَ لهفَةَ اليَتَامَى ، هَجَرتَني يَتِيمَاً قَبلَ أنّ أُفطَمَ مِن شَغَفِكَ..!
يا صَبَابَة كَلِمَاتِي ، و تَوَلُهَ حِكَاياتِي ، و هُيّامَ عِبَارَاتِي ، و صَبّوة رِوَايَاتي ، و لُوعَةَ حَرَكَاتِي ، أيُعجِبُكَ كَمَدِي و كُرّبَتِي .. !
يا قَاتِلِي بوله الوَدَاعِ ، دَعنِي أُعلِنُ على رَحِيلِكَ حِدَادَ نَبَضَاتِي مَا دُمّتُ حَيَّاً .. !
يا خَلِيلِي و صَاحِبِي و مُهجَتِي و وِدَادِي يا سَيّدِي ،
كَم جُرعَة مِن الصَبرِ تَكفِي لِأُدفَن بِجَانِبِكَ .. !

19

لَن أَقُولَ لَكَ إلَى الِّلقَاء ، بَل أَنْتَ مَعِي في لِقَاء دَائِم.
عِصَام البِيطَار .. فَتَنْت رُوحِي يَا شَهِيد.

زُهَير أبو سَعد

و كَانَت ،

دِمَشقَ قَد خَلَعَت سِحرِهَا اليَّاسَمِينِي ،

في لِيلَةٍ فَقَدَتِ الأرضُ بَدرَهَا ، و قد اكتَسَت أروِقَةِ الأحَياءِ القَدِيمةِ بِدَهمَاءِ الاسوِدَادِ الُموجِع ، و تَدفَقت حُشُودِ الدِمَشقِيينَ مِن كُلِ فَجٍ حَزِين ، لِيَتكفّل اللِيّل بِتِلكَ الطَوَابِير المُتَدَافِعَة التي انَسَكبَت مِن دُمُوعِ قَاسَيُّونَ ، مُكَبّلة تِلكَ الوجُوهِ الكَامِدَة لا لَحنَ ِلَملامِحِها سِوى أنِينُّ الصَمّتِ الُمغتَمِ ، مَكشُوفَة تِلكَ الأجفَانِ التي اجتَازَها مَخَاضُ النِواح المُصَفدِ بِالأسَى ، تَبكِيكَ اليَتَامَى يا خَلِيلِي ، تَتّدُبُكَ الأيَّامَى يا حَبِيبِي ، تَنُوحُكَ الأرَامِلُ يا رَفِيقِي ، فَكل عَوِيل الوجُودِ في عَدَمٍ إلا عَوِيل قَلبِي في عَزَاء.

السَاعَة 00 : 09 ، حُزناً ،

بِتَوقِيتِ الُموت العَبَثي ،

بِتَوقِيتِ النوَاحِ الُمذعُور ،

بِتَوقِيتِ انهِمَارِ الدُمُوع التي أغرَقَهَا الرَحِيل ،

بِتَوقِيتِ الطَامّةِ التي أُرِيقَت في حِصنِ الصُدُور ،

في مَشفَى تِشرِين العَسكَرِي ، رَاقِدٌ ذَلِكَ الجَسَد الُمبتَسِم للجَلِيد في ثَلاجَةِ الُموتَى ، مُجَمَّدة تِلكَ الدِمَاءُ العَطِرَة تُقَاضِي الجُبَنَاء ، صَلبَة تِلكَ الأطرَاف تَعصُفُ في ضَمَائِرِ الخَوَنَة ، بَارِدة تِلكَ الشِفَاه تَحتَ دَرَجَةِ

الذِّمَةِ العَالِمية ، القَارِصُ يُحيطُ بِوَجهِهِ كَمَا تُحِيطُ السَمَاءُ بِالبَدرِ المُلتَهِبِ نُوراً ، نَمْ يا حَبِيبِي كَمَا يَنَامُ الحَمَامُ على المَنَارَاتِ الأُمَوِية.

تُخرِجُ أُم عِصَام وَصيّةَ أبنِها ، تُعطِي الوَصِية لِزُوجِهَا ، يَشُمُهَا و يَضُمُهَا بِحَرَارَة و الدَمّعُ يُبَعثِرُ أنَاقَتَها ، يَتَأمَلُ بِأمُوَاجِ المُوَاسِيينَ التي اجتَاحَتِ البَيت ، يَأمُرُنِي بِأنّ أقرَأهَا على مَسَامِعِ المُعَزِيّن ، أمسَكتُهَا بِيَّدينِ مُرتَجِفَتَين سَرَى فِيهِمَا قَشعَرِيرَة تَشِيّبُ لَهَا الوِلّدَان ، أُمَزِقُ الظَرّفَ لِأُخرِجَ من مَوَارِبِها عِطرَهُ ، أُفَكِكُ طَيَّاتِهَا ، و أقرَاءُهَا بِصُوتٍ مُختَنِقٍ بِالعَوِيل:

بِسمِ الله الرَحمَنِ الرَحِيمِ

و صَلاةٌ و سَلامٌ على مُولانَا ، رَسُولِ الله و آلهِ و صَحبِهِ الطَيبِينَ و بَعد:

فَبَعدَ أن عَادَتِ الرُوحُ إلى خَالِقِهَا ، تَارِكاً لَكُم جَسَدِي ، فَإنِي أُوصِي أبِي و أُمي ، و كُل مَن لَهُ حَقٌ عَليَّ ، و أحَبَني أو كَرِهَني بِأن تُسَامِحُونِي ، أُوصِيكُم بِأن يغسِلنِي و يُكَفِنَنِي يُصلّي عَليَّ ، خَلِيلي و صَاحِبي : زهير.. و أن تَطُوفُوا بِنَعشِي في بَاحَةِ البَيت لأودِّعَ زَوَاياهُ ، فَليَحمِلَنِي الفُقَراء و الَمسَاكِين و الدَرَاويش ، عَابِرين أزِقَةَ دِمَشق إلى مَسجِد بَاب مُصلى الكبِير ، ثم ادفِنُونِي في مَقبَرةِ بَاب صَغِير ، بِجَانِبِ آلِ بَيتِ رَسُولِ الله ، فَلِّي مَع رَسُولِ الله مُوعِداً ، أترُكوا النَاس تَزُورَنِي فإنَّهُم أُنسي ، دَعوا الَمجَانِينَ مَاكِثِين على قَبري و لا تَطرُدُوهُم فَأنَهُم شُفَعَائي

عِنَدَ الله تَعَالى ، أزرَعُوا على قَبرِي الياسمِين تَأسياً بِالشَامِ ، و الله و لي التوفِيق..

و الحَمدُ لله رَبِ العَالَمِين على قَضَاءِ الله و قَدَرِه.

و بَعد انتِهَاء قِراءَةِ الوَصِيَة ،

تَعَالى النَحِيب بِأصوَاتٍ فوضَوِيَة ، و اهتَزَّ البَيتُ بالعَوِيل ، و تَراكَمَ الحُزنُ على الوجُوه ، و ابتَلتِ الوَصِيَةُ بِالدُمُوع ، وَ كَيفَ لا تَبكِيكَ العُيونُ و أنتَ عُيُونهُم! ...

لَقَد مَرَ لَيلُ دِمَشقَ كَغَصَةٍ في حَلقِ كُلِ مَن أحَبَهُ ، و بَدأ النُور يَرفَعُ خَرائِب ثَنَايَاهُ ، أنَهُ نُورُ الوَدَاع ، ذَلِكَ النُور الذي يُودِعُ النُور.

فَفَي صَبَاحِ يَومِ السَبتِ الحَزِين ،

من 8 أُكتُوبَر عَام 2011 ،

السَاعةَ 00 :09 ،

بِتوقِيتِ شُهَدَاءِ الشَرف ،

بِتوقِيتِ أسرَى النِضَالِ و الوَطن ،

بِتوقِيتِ كَرَامَتَنا المَسلُوبَة و عِزَتِنَا المَنهُوبَة ،

بِتوقِيتِ كُلِ لاجِئٍ و كُلِ مُشَردّ و كُلِ مُطَارَد ، و كُلِ مُلاحَق ،

بِتوقِيتِ الفَجَائع و الغُمُومِ و الوَداعِ و الرَحِيلِ و النَحِيبِ و البُكَاءِ،

تَصِلُ سِيَارَةِ الإسعَافِ إلى شَارِعِ البَدَوي في الشَاغُور ، حَامِلَة ذَلِكَ المَلاكِ الطَاهِر ، مُحَاوِلة دُخُولِ الشَارِع المُؤدِي إلى حَيّ الشَاغُور

بِصُعُوبَةٍ لا تُوصَف بِسَبَبِ اكتِظَاظِ الْمشَيّعِين ، أخرَجَوا جَسَدهُ المُخَمَرِ بِغِطَاءٍ عَسكَري ، و قَد طووا جُثّمَانَهُ على حَمَّالَةٍ حَدِيدِية يَتَقَاطَرُ مِنهَا دَماً أحمَر كَزُلالِ المِسك ، و بَعدَ أن مَاجَتِ الأكتَافِ بينَ الأزِقَة المُحَمَلةِ بِوَجَعِنَا ، أدخَلُوهُ إلى غُرفَةِ الضِيافَةِ ، التي أفرَغُوهَا مِنَ الكَرَاسي و الكَنَب ، و جَهَزُوهَا بِالَماءِ السَاخِنِ الَممزُوجِ بِمَاءِ الوَردِ و رُوحِ الزَهرِ ، و بالأكفَانِ البَيضَاءِ ، و الَمبَاخِرِ التي تَتَأجَجُ مِن أعِنَتِهَا بَخُورِ العُودِ و العَنبَرِ و المِسكِ ، و بسَرِيرٍ خَشَبي يَتَوَسَط الحُجرةِ ، و بَعدَ أن أدخَلُوهُ إلى البَيتِ مَدَدُوهُ على السَرِيرِ ، و رَحَل الجَمِيع مِن الحُجرَةِ و بَقِيتُ مَعَهُ وَحدِي ، على ذَلِكَ الجَسَد المُغَطى بِالسَكِينةِ ، المَعقُودِ بِالخِرَقِ المُحكَم بالهَيبَةِ ،

لِوَحدِي أقِف أمَامَ بَهَائِهِ كَمَا تَقِفُ الذرَة أمَام مَجَرة ،

و بِإجلالٍ و مَهَابَة بَدَأتُ أُفَكِكُ العُقَد التي تُوثِقُ جَسَدهُ ، كَشَفتُ عَن وَجهِهِ لأرَاهُ ، و إذّا العِينَانِ شَاخِصَتَانِ و ابتِسَامَتَهُ تَملأُ مَلامِحَهُ ، و شَفَتَاهُ تَقطِرُ دَمَاً مُجَمَداً ، قَبّلتُ رأسَهُ و ألَمِ السَمَاوَاتِ تَغَشى قَلبي ، تَأمّلتُهُ عن كَثبٍ ، و لَكَأنَّ البَدرَ في ليلةِ القَدرِ ، قَد كَسَاهُ اللهُ بِنُورِ أولِيَاءهُ،

جَرَدتهُ مِن ثِيَابِهِ المُجَمَدةِ بِالدِمَاءِ ، و أزَلتُ الجَليد بِالمَاءِ السَاخِن حتى ارتَخَى جِلدهُ ، و سَكَبتُ عَليهِ مَاءَ الوضُوءِ ، و دِمَاؤهُ تَتَدَفَقُ مِنَ الثُقُوبِ التي اختَرَقَهَا الرَصَاصُ على ظَهرِهِ ، فَقُمتُ بِحَشوِهَا بِالقُطنِ و ألصَقتُها

بِلاصِقٍ للجُرُوح ، و شَقَقتُ الكَفَنَ ، فَلَففتَهُ بالإزَارِ و القَمِيصِ و العِمَامَةِ،

و تَرَاتِيلِ الُمصَابُينَ بِالتَوحُدّ : المَنغُولِّينَ ،

الذين يَخدُمُونَ مَسجِدَ الإمَامِ : مُحيّي الدِين ابنِ العَرَبِي ،

يَفتَرِشُون أعتَابِ الحُجرَةِ ، و قَد تَعَالت أنَاشِيدهُم للشَهِيدِ ، بِأصوَاتٍ تُمَزِقُ الأحشَاء ، لأبياتٍ للإمَامِ زَينِ العَابِدِينَ ، بِن عَلي بِن الحُسَينِ:

ليسَ الغَرِيبُ غَرِيبَ الشَامِ و اليمَنِ..

إنَّ الغَرِيبَ غَرِيبَ اللحدِ و الكَفَنِ..

إنَّ الغَرِيبَ لَهُ حَقٌ لِغُرَبتِهِ..

على الُمقِيمِينَ في الأوطَانِ و السَكَنِ..

و بَعدَ أنّ أتمَمتُ تَكفِينِهِ ، طَيَّبتُ وَجهَهُ بِدُهُنّ اليَاسَمِين المُعَتّقِ ، و أظهَرتُ وَجهَهُ لِمَن أرَادَ رُؤيَتَهُ مِن أهلِ بَيتِهِ ، و وَسَدّتُهُ في تَابوتٍ خَشَبِي ، قَدّ حُفِرَ بِالآيَاتِ القُرآنِيَةِ ،

و قَبَلّتُ وَجهَهُ المُشتَعِلِ جمَالاً مَجّبُولاً بِالنُورِ ، فَهَمَستُ في أُذُنِهِ:

مُبَارِكٌ عَلَيّكَ الجِنَانِ يا عِصَام ، مُبَارك عَليكَ الشَهَادَةِ يا عَاريس ، إلى جِنَانِ الخُلدِ يا حَبِيبِي..

و بَعدَ أن وَدّعتُهُ و ضَمَمتُهُ ، دَخَلَ الدرَاويش و المَسَاكِين و المَجَانِينِ لِيحمِلُوا النَعشَ على أكتَافَهُم ، بل لِيحمِلوا دِمَشقَ على أحزَانِنَا ، بل لِيحمِلوا اليَاسَمِينَ على أوجَاعِنا ،

فَبِإخرَاجِ الجُثمَانِ إلى حَرَمِ البِيتِ ، عَجَّتِ الزَغَارِيد ، و تَنَاثَرَتِ الورُودِ و الأرُزِ مِن شُرُفَاتِ الأسطُحِ و النَوافِذِّ ،

و قَامَتِ الحَضّرَة التي أحيَاهَا دَرَاوِيش السَادَةِ الصُوفِية ، و ضُرِبَتِ الدُفُوفُ على صَخَبِ الأنَاشِيدِ ، و طَافُوا بِنَعشِهِ في فَنَاء البَيتِ ، مِن بَعدِ أن وَدَعَهُ أهلهُ بِسُيولٍ مِنَ الدُمُوع..

حُمِلَ القَمَرُ على أكتَافِ الضِعَافِ ،

حُمِل الشَهِيدُ على أعنَاقِ المَجَانِين ،

إلى مَسجِدِ بَابِ مُصَلَّى الكَبِير ، تَحتَ وَطأةِ الحُشُودِ التي يَصعُبُ على العَقلِ عَدَّهُا ، و مِن هُولِ المَشهَدِ أُغلِقَتِ كُلِ مَنَافِذّ المَدِينَةِ العَتِيقَةِ بِالمُشَيّعِينَ ،

فَبَعدَ أن أتَمَت حُشُودِ المُؤمِنِينَ صَلاةَ الظُهرِ ،

قَرّبُونِي لِأُصَلي عَليهِ صَلاةِ المَيت ، إنَهُ ليسَ بِمَيتٍ ، إنَهُ حَيٌّ عِندَ الله ، ثُمَّ حَيٌّ في قُلُوبِنَا و لَكِن لا تَشعُرُون ،

و بَعدَ أن أتمَمتُ أربَعَ تَكبيراتٍ مَعَ التسلِيمِ ،رُفِعَ النَعشُ فَوقَ الرِقَابِ و الرُؤوسِ ، عَابِرة الأمواجِ البَشَرِيّةِ ، تَحتَ مَشهَد تَشهَق لهُ السَمَاوات ، شَيعُوهُ يا أهَل الله إلى الجِنَانِ ،

جَاءَكُم اليَومَ اليَاسَمِينَ شَهِيداً فَاكرِمُوه ،

إنَهُ شَمسٌ إنَهُ قَمرٌ إنَهُ بَدرِ البُدورِ فَزُفُوه ،

تَسيرُ بِهِ الحُشُودِ إلى مَقبَرةِ آل بَيتِ رَسُولِ الله بِصُعُوبَةِ ،

هُنَاكَ في لحدِهِ أنْزِلُوه على مَهَلٍ ،
حَثوا التُرابَ على الشَهيدِ عِصَامِ البَيطَار ،
حَثوا التُرابِ على دِمَشقَ بَل على اليَاسَمين ،
أهَالُوا التُرَاب على الشَامِ ، فَقَدنا بَرَكَةِ أبُو الفُقَراءِ ،
ألا إنَّ أولِياءِ الله لا خُوفٌ عَليهِم و لا هُم يَحزَنُون.
نَمّ يا خَلِيلَ اليَاسَمِينَ في ذَاكِرَتي ،
في قَبرِكَ وَسَدُوكَ يا حَبِيبِي ،
و بِالترُابِ غَيَبُوكَ يا هَوَسي ،
يا مَقَاماً ضَمَّ عِطرَكَ الشَافِي ،
أرِح مُقلَتَاهُ مِن ألِمِهِ الجَافِي ،
فَلَقَد أصبَحَ قَبرَ الشَهِيد : عِصَامِ البَيطَار ،
مَزَاراً لِمَن أحبَهُ ، لِمَن عَشِقَهُ ، لِمَن تَبرك بِهِ ،
مَزَاراً للعِطَاش ، و للجِياعِ ، و للحُبِ و للغَرَامِ و للهُيَامِ ،
مَأوى للمَظلُومِينَ و للضَائِعينَ و للصَالِحِين و المُتَوَسِلِينَ ،
مَرقَداً لليَاسَمِينِ ، و ظِلاً للغُرَباءِ ، و نوراً للحَيارى ،
يا أبَا الفُقَراءِ هون على قَلبِي غِيَابكَ ،
و أرِح الفُؤَادَ على رَحِيلك.